من البلاغة النبويّة

تأليف
الدكتور

كامل سلامة الدِّقْس
رئيس قسم الدراسات الاسلاميّة
كليّة الآداب - جامعة الملك عبدالعزيز - جده



للنشر والتوزيع والطباعة
جده - ص . ب ٤١٤٦

29

إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن علي الدعفس

المملكة العربية السعودية

من البلاغة النبوية

تأليف

الدكتور
كامل سلامة الدقس
رئيس قسم الدراسات الاسلامية
كلية الآداب - جامعة الملك عبدالعزيز - جده



بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين ، الذي أُنزل عليه الكتاب المبين ، معجزة خالدة إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد اتجهت النفس متسامية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، لدراسة أقواله الرائعة ، وبلاغته العالية ، دراسة تحليليةشاملة ، لنقتبس من نور هديه ، ولنتنسم نسيم عرفه ، ولنشاهد إرهاصات النبوة ، حتى نملأ نفوسنا من ينابيع الهداية ، ونداوي أمراض قلوبنا بما وصفه من دواء ، ونكشف الغمة عن نفوسنا بما فيها من حكم وعبر ، ونمتع عقولنا ووجداننا ببيانه العالي الذي لا يُعالى !!

لقد صارت دراسة الحديث النبوي دراسة أدبية فكرية شاملة هدفاً لنا مقصوداً ، وأملاً منشودا منذ سنوات ، لنرى في مرآته الصافية صورة هذا النبي المصطفى بمكارمه المثلى ومبادئه العليا ، وسياسته الرشيدة ، وأخلاقه الحميدة ، التي أسس بها خير أمة أُخرجت للناس . .

وإذا كان من صفات الرسل أن يكونوا قادرين على البيان والتبليغ ، وكان محمدﷺ خاتمهم وإمامهم ، وكانت كبرى معجزاته هي القرآن الكريم ، وهي معجزة بيانية ، فلا عجب ولا غرابة أن يكون كلام رسول الله من أبلغ الكلام بعد كلام الله عز وجل ، ولذلك لم يسمع الناس ـ كما يقول الجاحظ ـ بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين عن فحواه ، من كلامهﷺ .

ورسول اللهﷺ هو القدوة والمثل الأعلى لبلاغة القول في الدنيا ، وهو كذلك القدوة في بلاغة القول والبيان عند لقاء الناس ربهم يوم القيامة ، فقد روى أحمد والترمذي أن رسول الله قد قال : (إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم من غير فخر) .

لقد خص الله تعالى رسوله بجوامع الكلم ، لما هو مشهور من أن كل نبي يبعث بمعجزة مناسبة لما اشتهر به قومه ، وكانت شهرة العرب البلاغة والفصاحة ، فكانت معجزته من ناحيتها ، وكانت بلاغته في الحديث التي تمكنه من تأدية رسالته بينهم .

فقد قال عليه الصلاة والسلام : (إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأُعطيت جوامع الكلم وفواتحه ، واختصر لي الحديث اختصاراً . .) .

لقد اجتمعت للرسول الكريم كل أسباب الفصاحة والبلاغة ، وتوفرت لديه كل دواعي اللسانـة والاقتدار . وحسن البيان .

ولِمَ لا يكون كذلك ، وهو الذي صنعه ربه على عينه ، واختاره لرسالته ، وجعله صفوة خلقه وقدوة عباده ورحمة للعالمين . فكان في قمة العروبة وصفاء اللغة واكتمال الفصاحة .

وهذه البلاغة النبوية التي خرّت رؤوس السامعين لها ساجدين ، يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان ترل عايه القرآن بحقائقه ، ففي مدارسة القرآن ، وتأديب الرحمن موضع التفرد في الرسول الأعظم ﷺ . وكان ذلك عاملاً أعظم من سواه في نشر دعوته ، وانتشار سمعته ، لأنه في قوم لدّ يتفاخرون بالبيان ، ويتحدون برجاجة الأحلام ، والبلاغة أكبر مظاهرها ، وأعظم ظواهرهـا ، ولـذا كان حديثـه في الاضطراب سكناً ، وفي الضلال هداية ، وفي الفقر غنى ورضا ، وفي المرض سلامة وعافية .

ولا عجب بعد كل هذا أن تستحوذ دراسة الحديث النبوي دراسة أدبية فكرية على اهتمامنا ، وأن نوليها هذه العناية باخراج هذه السلسلة من الدراسات الإسلامية لتحتل مكانتها في مكتبـة الدراسـات الأدبية والبلاغية، فالحديث النبوي يعتبر المصدر الثاني للتشريع والتربية والتعليم ، ويأتي بعد القرآن مباشرة في اعجازه البياني والمعنوي .

هذا ، وقد نهجت في هذا الكتاب (من البلاغة النبوية) نفس النهج الذي نهجته في كتبي السابقة لدراسة الأحاديث النبوية دراسة أدبية فكرية ، مع شيء من التيسير والتخفيف من النواحي اللغوية حتى يتلاءم مع المستوى العلمـــي والفكري لطلاب كلية الآداب وغيرها من الكليات من غير المختصين في اللغة العربية وآدابها .

والله أسأل أن يجعل كل أعمالي خالصة لوجهه الكريم ، ونافعة لكل من قرأها ، وأن تؤدى ما أردته من خدمة السنة المطهرة وإحيائها .

والله من وراء القصد

دكتور كامل سلامة الدقس
الاستاذ المشارك للدراسات الاسلامية والأدبية

الزبداني : العاشر من رمضان سنة ١٣٩٨ هـ
الموافق الرابع من أغسطس سنة ١٩٧٨ م .

الحديث الأول
جوامع الكلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال : (أُعطيت جوامع الكلم ، واختُصِرَ لي الكلام اختصارا) .

رواه أبو يعلى في مسنده

وفي رواية أخرى : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال : (فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ : أُعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب ، وأُحلَّتْ لي الغنائم ، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً وأُرسلت إلى الخلق كافةً ، وخُتم بي النبيون) .

رواه مسلم في صحيحه

المعاني والتصوير :

قد يكون من حسن المناسبة ونحن نكتب كتاباً عن بلاغة الرسولﷺ أن نفتتح كتابنا هذا بحديث يتعلق بذكر جانب من مزايا كلامه وخصائص اسلوبه النبوي الكريم ، وأسباب لسانته وفصاحتهﷺ ، وما خصه الله سبحانه وتعالى به على سائر خلقه .

والحديث الذي معنا يورد جانباً من هذه الخصائص على لسان الرسولﷺ . وهو لا يذكرها مفاخراً مباهياً، ولكن يوردها لتقرير الحقائق وتبيان الوقائع، والتحدث بنعمة الله تعالى عليه . ففي غير هذا الحديث أخبر النبيﷺ عن فضائل له وخصائص ، وعقب عليها بقوله : (وانا أكرم ولد آدم ولا فخر) ، وإنما قال ذلك لوجهين : أحدهما امتثال أمر الله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) . والثاني : أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه ويعملوا بمقتضاه ، ويوقروهﷺ بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى . وهذا الحديث دليل لتفضيلهﷺ على الخلق كلهم لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة وهوﷺ أفضل الآدميين وغيرهم .

وقد قال ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع) .

قال الهروي : السيد هو الذي يفوق قومه في الخير . وقال غيره : هو الذي يفزع إليه في النوائب والشدائد فيقوم بأمرهم ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم : أما قوله ﷺ يوم القيامة مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة فسبب التقييد أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد ولا يبقى مناع ولا معاند ونحوه بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين .

كما قال في حديث آخر : (إذا كان يوم القيامة كنتُ إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر) .

وأول الخصائص الست المذكورة هنا هي التي فضله بها على إخوانه الانبياء قوله : (أُعطيت جوامع الكلم . .) وفي رواية اخرى : (أُوتيت جوامع الكلم)

وهذا الحديث الشريف يُصور لنا بلاغة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان من صفات الرسل الأساسية أن يكونوا قادرين على البيان والتبليغ ، وكان محمد ﷺ خاتمهم وإمامهم ، وكانت كبرى معجزاته هي القرآن الكريم . وهو معجزة بيانية ، فلا عجب ولا غرابة أن يكون كلام رسول الله أبلغ كلام بعد كلام الله عزّ وجل ، ولذلك لم يسمع الناس كما يقول الجاحظ بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ .

ولك أن تسأل : لماذا خص ﷺ بجوامع الكلم من القرآن والحديث ؟

والجواب عن ذلك : أنه خص بجوامع الكلم وهي الكلم الموجزة في اللفظ ، الحافلة بالمعاني لأنه :

أولا : لما هو مشهور من أن كل نبي يبعث بمعجزة مناسبة لما اشتهر به قومه ، وكانت شهرة العرب البلاغة والفصاحة ، فكانت معجزته من ناحيتها ، وكانت بلاغته في الحديث هي التي تمكنه من تأدية رسالته بينهم .

ثانيا : لأنه بعث برسالة تعتمد على الدعوة السليمة بالاقناع ، لا بالتخويف بآية

عذاب ، كالتي كان الرسل يعتمدون عليها قبله ، لأنه بعث بشريعة باقية الى الساعة ، ولأمة أريد لها البقاء لا الفناء ، فناسبتها هذه المعجزة القرآنيةِ ، التي تأخذهم على مهل بالاقناع ، فمن شاء آمن بها فنجا من عذاب الآخرة ، ومن شاء لم يؤمن بها فاستحق هذا العذاب فقط ، ولم يؤخذ بآية عذاب دنيوي كما أخذت الامم التي أهلكت بآيات العذاب الدنيوي .

ولكن ما هي مقومات البلاغة النبوية وما الأسباب التي جعلت محمداًﷺ أفصح العرب ، وجعلت أسلوبه الشريف يأتي في المرتبة الثانية مباشرة بعد القرآن في بلاغته وإعجازه .

والجواب عن ذلك : أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اجتمعت له كل أسباب الفصاحة والبلاغة ، وتوفرت لديه كل دواعي اللسانه ، والاقتدار ، وحسن البيان .

ولعمر الحق لن يصفه واصف بأبلغ ولا أوجز ولا أدل من قوله عليه الصلاة والسلام : (أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش ، واسترضعت في بني بكر ابن سعد) . كما قال جماعة من الصحابة : يا رسول الله ما رأينا الذي هو أفصح منك . قال : وما يمنعني : فإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين) .

وأخرج جماعة من المحدثين أن أبا بكر رضي الله عنه قال للنبيﷺ : (لقد طفت للعرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ فقال رسول الله : أدبني ربي فأحسن تأديبي) .

وهذا خبر متظاهر ، وهيهات أن يكون في العرب فصيح تُعرِّفُه فصاحتُه ، ولا يكون قد سمعه أبو بكر ، متكلماً أو خطيباً أو منشداً في سوق أو موسم أو حفْل ، فانه ـ رضي الله عنه ـ في علم العرب وأنسابها وأخبارها ولغاتها وآثارها ـ الغاية التي يُنتهى إليها ويُوقَفُ عندها ، حتى لا يُعْدَلُ به عَدْل ، وحسبُك أن أنسب العرب في صدر الإسلام ، وهو جُبَيْرُ بنُ مطعم ، إنما عنه أخذ ومنه تعلم ، وإذا قالوا في المبالغة : أنسب من أبي بكر . فقد قالوا أنسبُ الناس ! فهذا أبلغُ ما ندلي به من حجةٍ وما ندل به من خبرٍ في هذا الباب لأنه خبر من أنسب العرب عن معرفة ، ومعرفةً عن عيان ، وعيان بعد استقصاء ، واستقصاء عن رغبة في العلم وتحصيله والمعرفة به مع قوة الفطرة

وسلامتها وليس وراء ذلك في صحة الدليل مذهب من مذاهب التاريخ[1] .

وقد بلغ العجب من نفس أبي بكر مبلغ الأعجاب بفصاحته ﷺ ، فراح يتوجه إليه بما يشبه الاستفسار عن السرّ في هذه الفصاحة التي انفرد بها عن غيره من سائر العرب ، وقد ردّ ﷺ على كلام أبي بكر بما يشبه الإجابة عن ذلك الاستفسار ، فبين أنه لا غرابة في هاته الفصاحة ، ولا مانع منها ، لأنه قد اجتمع له أمران قويان ، وهما ما اجتمعا لامرىء الا تهيأت له أسباب الفصاحة ، وتوفرت لديه دواعي اللسانة ، والاقتدار وحسن البيان .

الأمر الأول : أنه من قريش ، وهي أفصح العرب ، وصاحبة الأثر الكبير في تهذيب اللغة العربية ، وترقية أساليبها ، وتخير ألفاظها ، وصقل عباراتها ، بسبب ما كان من اجتماعات العرب في المواسم فكانت تتخير من لغات الوافدين اليها ما خف على اللسان وحسن في الآذان ، فلطفت لهجتها وجاد أسلوبها وزادت ثروتها ، وكرمها القرآن فنزل بلغتها .

وهو ﷺ قد استرضع في بنى سعد بن بكر وكانوا من العرب الضاربين حول مكة يتبدى فيهم أطفال قريش يطلبون نشأة الفصاحة ، وقد أجمع الرواة على أن لهم اختصاصاً وامتيازاً من بين العرب في الفصاحة وحسن البيان ومحمد عليه الصلاة والسلام صاحب الاستعداد الخصيب والفطرة العالية فكيف يبلغ من أدبهم . فقد أقام بين الأعراب في البادية إلى الخامسة من عمره ، وتعلم منهم اللغة العربية السليقة الخالصة من لحن الحواضر وشوائبها . فلا عجب إذن في قوة فصاحته ، وطلاقة لسانه .

ولِمَ لا يكون الرسول ﷺ كذلك ، وهو الذي صنعه الله على عينه ، واختاره لرسالته ، وجعله صفوة خلقه وقدوة عباده ورحمته للعالمين . . وكان في قمة العروبة وصفاء اللغة واكتمال الفصاحة ، وهو القائل فيما رواه ابن سعد مرسلاً (أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد بن بكر) . . . وفي رواية أخرى قال : (أنا أعرب العرب ، ولدتني قريش ونشأت في بني سعد بن بكر ، فأني يأتيني اللحن) .

وهو فوق هذا كله كما وصف نفسه قد أدبه ربه وصنعه على كرائم ما يؤتي الناس

---

(1) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ ٣٣٣

من مبان ومعان جل مواهبها ، وذلك الركن الركين ، والسر الكمين والغاية التـي لا تدرك . . . فهو تلميذ القرآن ، وخصيصه وصفيـه ونجيبـه ، وهـل كان إلا للقـرآن يتعهده ، ويهذبه ويعلمه البيان ؟

ففي مدارسة القرآن ، وتأديب الرحمن موضع التفرد في رسول الله ﷺ ، فقد اصطفى له ما شاء من صور البيان فكانـت له : بلاغـة سجـدت الأفـكار لآيتهـا ، وحسرت العقول دون غايتها .

وإذاً ، فقد صورت للقارىء الكريم بعض عوامل بلاغة الرسول ﷺ بمقدار ما أوردت من الأحاديث الكريمة السالفة الذكر ، ولا ريب أن عوامل بلاغتـه أكثـر من ذلك ، ولكنني لست في هذا السبيل فإن السفر طويل ، وليس المجال بمستدع ذلك .

تلك هي العوامل التي جعلت رسول الله ﷺ أفصح العرب ، وجعلت أسلوبه السامي يأتي في المرتبة الثانية في فصاحته واعجازه وسموه بعد القرآن الكريم مباشرة . .

وإذا ذهبنا نتعرف على خصائص البلاغة النبوية وسماتها الفنية التي امتاز بهـا كلامه ، وجدناه عليه الصلاة والسلام يدلنا في هذا الحديث الذي نحن بصـدده على أسرار هذه البلاغة المعجزة بقوله : (أعطيت جوامع الكلم) ، والمراد من الإعطاء هنا إعطاء الله تعالى لرسوله تفضلاً وتكريماً ، فالمعطى هو الله صاحب الفضل والكرم ، وما أعظم ما أعطاه الله عز شأنه لرسوله ﷺ ، وأحب الخلق إليه ، ولذلك قال القرآن الكريم في سورة الضحى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وقال في سورة الكوثر : (إنا أعطيناك الكوثر) أي الخير العظيم العميم . .

ولقد وردت كلمة (أوتيت) بدل كلمة (اعطيت) في بعض الروايات والإيتاء والإعطاء متقاربان ، والله جل جلاله يقول في سورة الحجر (ولقد آتيناك سبعـاً من المثاني والقرآن العظيم) ويقول في سورة طـه (ولقد آتيناك من لدنا ذكرا) .

وهذا الذي أشرنا إليه ، انما هو الأصل في أن الكلام النبويّ جامع مجتمع ، لا يذهب في الأعمّ الأغلب إلى الإطالة ، بل يأتي مقدّراً في مادته ومعانيه وأسلوب الجمع بينها وربط الصورة بالمعنى .

وقد عبر عليه الصلاة والسلام عن هذه السمة الفنية البارزة في اسلوبه الكريم بقوله (جوامع الكلم) والجوامع : جمع جامعة ، والكلمة الجامعة هي العبارة القليلة

الألفاظ الكثيرة المعاني ، وقد ورد في السنة من صفة النبي ﷺ أنه كان يتكلم بجوامع الكلم) ، أي أنه كان كثير المعاني قليل الألفاظ .

فعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سألت هند بن أبي هالة ، عن حلية رسول الله ﷺ ، وكان وَصَّافاً ، قلت صف لي منطقهُ قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير) .

وقد قالت عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يَسْرُدُ كسرد كم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصْل ، يحفظه من جلس إليه . وفي رواية أخرى عنها أيضاً : كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لوعَدَّهُ العادُّ لأحصاه .

وروى أن النبي ﷺ كان يستحب الجوامع من الدعاء ، وهي الدعوات التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة أو تجمع الثناء على الله تعالى وآداب السؤال . . وقيل : إن المراد بجوامع الكلم : القرآن المجيد ، لأن الله جمع بلطفه في الألفاظ اليسيرة منه معاني كثيرة ، ولذلك يقول الهروي عن جوامع الكلم : (يعني بها القرآن جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة) .

وليس هناك ما يمنع من شمول جوامع الكلم كلام الرسول وكلام ربه ، فالله تعالى قد أنزل على نبيه القرآن وهو النموذج الأعلى لجوامع الكلم ، والله قد وهبه من البيان والبلاغة ما جعله مثلاً وقدوة في الإتيان بجوامع الكلم في خطبه وأحاديثه .

وقيل في تعليل تسمية القرآن بجوامع الكلم هو أن القرآن الكريم يسمى بذلك لايجازه واشتمال لفظه اليسير على المعنى الغزير ، واشتماله على ما في الكتب السماوية ، ومما يؤيد هذا التفسير أن رواية البخاري للحديث تقول : (بعثت بجوامع الكلم) .

وقيل : إن المراد بجوامع الكلم هو كلام الرسول ذاته ، لأن كلامه عليه الصلاة والسلام ، يمتاز بالايجاز والاختصار ، مع كثرة المعاني وفخامتها ، مع روعة الأسلوب وبهائه ، ويقول الإمام ابن حجر في ذلك : كان ﷺ يتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ، وهو فاصل بين الحق والباطل ، لا زيادة فيه على المحتاج إليه ، ولا تقصير فيه عن أداء المراد ، بل هو على الغاية المطابقة لما اقتضاه المقام من ايجاز

أو اطناب أو مساواة ، إذ هو شأن الفصيح ، ولا أفصح منه ، بل لا مساوي له في فصاحته ﷺ .

ولسنا نعرف أسلوباً لأحد البلغاء هذه صفته ، بل انفرد ﷺ بهذا الأسلوب العجيب ، إذ كان طويل السكوت ، ولم يكن يتكلم في غير حاجة فإذا تكلم لم يسرد سرداً ، بل فصل ورتل ، وأبان وأحكم ، بحيث يخرج كل لفظة وعليها طابَعُها من النفس ، وانه بذلك قد جمع خصالاً من إحكام الآداء ، لا يشاركه فيها منطق أحد الا الى حدٍّ ، ولا تتوافى إلى غيره ، ولا تتساوى في سواه كما يقول الرافعي ـ رحمه الله .

ومن كمال تلك النفس العظيمة ، وغلبة فكره ﷺ على لسانه قلَّ وخرج قصداً في ألفاظه ، محُيطا بمعانيه ، تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة والكلمات المعدودة بكل معانيها ، فلا ترى من الكلام ألفاظاً ولكن حركات نفسية في ألفاظ ، ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب ، وكثرت جوامع كلمه ؛ وخلص أسلوبه ، فلم يقصر في شيء ، ولم يبالغ في شيء ، واتسق له هذا الأمر على كمال الفصاحة والبلاغة ما لو أراده مُريدٌ لعجز عنه ، ولو هو استطاع بعضه لما تمّ له في كل كلامه ؛ لأن مجرى الأسلوب على الطبع ، والطبع غالب مهما تشدَّد المرء وارتاض ، ومهما تثبت وبالغ في التحفظ .

هذا إلى أن اجتماع الكلام وقلة ألفاظه ، مع اتساع معناه وإحكام اسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف ، ومع إبانة المعنى واستغراق اجزائه ، وأن يكون ذلك عادة وخلقاً يجري عليه الكلام في معنى معنى وفي باب باب ـ شيء لم يعرف في هذه اللغة لغيره ﷺ [1] .

وقد وصف أديبنا الجاحظ كلام رسول الله ﷺ وصفاً حسناً بقوله : (هذا الكلام الذي قلّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلّ عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقيّ ، فلم ينطق عن ميراث حكمه ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام

---

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ ٣٣٢ .

وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير . . .)[1] الخ .

وقد جمع الناس من كلامه المفرد البليغ الوجيز الذي لم يسبقه إليه أحد دواوين ، نذكر من ذلك شيئاً منها على سبيل الاستشهاد لا الحصر ، نذكر من ذلك بعض أحاديثه التي ذهبت مذهب الأمثال من ذلك قوله ﷺ : (مات حتف أنفه) (لا يلسع المؤمن من جحر مرتين) (هدنة على دخن) (الدين المعاملة) (إذا لم تستح فاصنع ماشئت) (الدين النصيحة) (الصبر عند الصدمة الأولى) (لا ضرر ولا ضرار) (كل الصيد في جوف الفَرَا) (اليد العليا خير من اليد السفلى) (المستشار مؤتمن) (كل أرض بسمائها) . . الخ .

ولعلك ترى في الأمثلة وغيرها، أن ذلك كان توفيقاً لا إقلالاً، وإصابة لا عجزاً ، وهو من الحكمة التي وصف بها الجاحظ هذا الكلام فقال : إنه لم ينطق إلا عن ميراث حكمه . .

روى الأصمعيُّ وابن الأعرابي عن رجالهما : ان رسول الله ﷺ قال : (إنا معشر الأنبياء بِكاء) فقال ناس : البُكوء : القلة . وأصل ذلك من اللبن ، فقد جعل صفة الأنبياء قلة الكلام ، ولم يجعله من إيثار الصمت ومن التحصيل وقلة الفضول .

وهناك حديث نبوي شريف آخر يؤيد معنى الحديث الذي نحن بصدده (أوتيت جوامع الكلم) وهذا الحديث الآخر يقول فيما يرويه الطبراني وابن أبي شيبة : (اعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه) . أي أعطيت البلاغة والفصاحة مع الاختصار والايجاز ، والتوصل إلى غوامض المعاني وبدائع الحكم ومحاسن العبارات ، التي أغلقت على غيره ﷺ ، ولذلك جاء في رواية : (أعطيت مفاتح الكلام) .

وكذلك أعطى خواتم الكلام وهي تعني حسن الوقف ورعاية الفواصل ، فيبدأ كلامه بأعذب لفظ وأفصحه ، وأبلغ أسلوب وأوقعه ، ويختمه بما يشوق السامع إلى الإقبال على استماع مثله والحرص عليه ، وبذلك تتوافر براعة الاستهلال مع حسن الختام .

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٤ تحقيق السندوبي

ويؤكد هذا ما قاله رسول الله ﷺ فيما رواه البيهقي مرسلاً وهو : (إنما بعثت فاتحاً وخاتماً ، وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه ، واختصر لي الحديث اختصاراً ، فلا يهلكنكم المتهوكون) .

والمتهوكون هم الذين يقعون في الأمر بغير روية . . وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال لعمر بن الخطاب في كلام : (أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ لقد جئت بها بيضاء نقية) .

ومن بلاغة الرسول ﷺ وتحليه بالكلمات الجامعة والحديث المفيد المختصر أنه كان يكره الإطالة في الكلام دون موجب ، وهذا أحد الناس يقف أمام الرسول ليتحدث فيطيل بلا مسوغ ، فيقول له عليه الصلاة والسلام : كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال الرجل : شفتاي وأسناني ، فقال النبي : إن الله يكره الانبعاق في الكلام ، فنضر الله وجه رجل أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته)

والانبعاق هو الاندفاع في الكلام . والبعاق ـ بضم الباء ـ هو المطر الكثير الغزير الواسع ، ويروى في الحديث أنه ﷺ كان يكره التبعق ـ ويروى الانبعاق ـ في الكلام ـ أي التوسع فيه والتكثر منه .

ومن الأمور البديهية التي لا يختلف فيها عاقلان أن خير الكلام ما قل ودل ، وأن المكثار معثار ، وأن طول الكلام ـ دون داع ـ ينسي بعضه بعضا ، وأن ما قل ودل خير مما طال وأملّ . .

وإذا كان رسول الله ﷺ هو القدوة والمثل الأعلى لبلاغة القول في الدنيا ، فإنه كذلك سيكون القدوة في بلاغة القول والبيان عند لقاء الناس ربهم يوم القيامة ، فقد روى أحمد والترمذي أن رسول الله ﷺ قال : (إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر) . ويقول المناوي عن هذا الحديث : لما كان النبي ﷺ أفضل الأولين والآخرين ، كان إمام النبيين ، فهم به مقتدون ، وتحت لوائه داخلون ، وخطيبهم بما فتح الله تعالى عليه من المحامد التي لم يحمده بها أحد قبله ، فهو المتكلم بين الناس إذا سكتوا عن الاعتذار ، فيعتذر لهم عند ربهم ، فيطلق لسانه ﷺ بالثناء على الله تعالى بما هو أهله .

وفي حديث آخر رواه الترمذي جاء قوله : (أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ،

وأنا خطيبهم إذا وفدوا) والمراد بالبعث الخروج من القبور ، و (وفدوا) ، أي قدموا على ربهم للحساب يوم القيامة .

هذا ، وليس يعني أنه ﷺ قد أعطى جوامع الكلم ، وفصل الخطاب ، لم يكن يطيل الكلام إذا رأى وجهاً للإطالة ، فقد كان يطيل في الحين بعد الحين كما قال الجاحظ أيضاً أنه يبسط في موضع البسط ويقصر في موضع القصر ، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه خطب بعد العصر فقال : (ألا إنَّ) الدنيا خَضِرَةٌ حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا علمه . قال أبو سعيد : ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السَّعف ، فقال ، (إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى) . .

ومهما يكن من شيء فإن الإقلال كان الأعم الأغلب في كلام النبي ﷺ .

هذا ، وفي كلام النبي عليه الصلاة والسلام نوع من الإطناب يسمى (التوشيع) ، وقد تردد كثيراً فيها بجمال فاتن وإحسان عظيم ، لأنه يتفق مع الاجمال ثم التفصيل ، لزيادة تقرير المعنى وإيصاله إلى السامع ، وهو إحكام لصنعة البلاغة ، ولهذا كان ﷺ يقول الكلمة ثلاثاً لتفهم عنه ، ولم يكن يسرد سرداً ـ كما سبق أن ذكرنا ـ

ونحن نعرف ان جوامع الكلم غير الاختصار كما قد يتوهم ، وكان ﷺ يقول : (نحن معاشر الأنبياء بكاء) لأنهم يكرهون الفضول ، ويقصدون إلى الأهداف ، ويعمدون إلى الصراحة ، ولما نصح جرير بن عبد الله قال له : (إذا قلت فأوجز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف) ، ولهذا قال : (أبغضكم إليّ الثرثارون المتفيقهون) .

وقد أحصى العلماء كثيراً من الكلام المفيد السامي الذي يشتمل على كلمتين من كلامه كقوله : (الإيمان يمان) و (الدين النصيحة) و (الدين المعاملة) (السماح رباح) وما إلى ذلك من الكلام العذب المغدق الخصيب المتحلى بمحاسن البديع الطبيعي .

ومن كلماته الجوامع النوابغ ، التي يقف المتدبر المتأمل أمامها متفكراً ، ولو أراد

لأطال في بسطها وتفصيل مفهومها الحديث والمقال ، ومن هذه الجوامع الكلمات التالية :

يا خيل الله اركبي
المجالس بالأمانة .
الآن حمي الوطيس
الندم توبة
إن الرائد لا يكذب أهله .
من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه .
صنائع المعروف تقي مصارع السوء .
إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم .

ولعلك ترى في هذه الأمثلة أن ذلك كان توفيقاً لا إقلالاً ، وإصابة لا عجزاً ، وهو من الحكمة التي وصف بها الجاحظ هذا الكلام فقال : انه لم ينطق الا عن ميراث حكمة ، وكان يبسط في موضع البسط ، ويقصر في موضع القصر .

هذا ، ولغلبة الايجاز على كلام النبيﷺ في غير تكلف ولا عناء مع بلوغ الغاية كان اعجاب الأصحاب به وتعجبهم من مسلكه ، وفي الحق إن ذلك ناحية الامتياز الكبرى في بيانهﷺ فان اجتماع الكلام بقلة ألفاظه مع اتساع معناه وإحكام اسلوبه في غير تعقيد ، وإطراد ذلك في كل معنى وفي كل باب شيء لم يعرف لأحد قبله . فأما غيره فإنه يستهلك بالاختصار معنى الكلام ويستولى عليه بالتكلف . ومن شاء فلينظر في المختصرات ومختصرات المختصرات فيما بين أيدينا من الكتب ليرى كيف يصنع الاختصار من تشويه الحقائق وتكلف ما يحول دون الفهم .

والكلام النبوي شيء جل عن الصنعة ، لأن الصنعة انما تعوز ما فقد الحسن الذاتي فاحتاج إلى تجميل عرضي ، فأما الكلام الصادق في بلاغته الذي يجري مع النفس سهولة ويسرا ، فهو غني عن كل ذلك . وليس معنى هذا أن الكلام النبوي خلا من المحسنات ، ولكنها تجيء عفواً في كلامه فتكون حسناً على حسن ، كقوله : (أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله) . وقوله للأنصار : (انكم لتكثرون عند الفزع وتقلُّون عند الطمع) وفي هذا الحديث مقابلة وسجع في غاية الحسن ونهاية الإفادة ، وغيره كثير في كلامه ، ولكنه لا يوصف بالصنعة ، والتنزه

عن التكلف متصل بذلك إلا أن التكلف أوسع دائرة ، فهوﷺ ما كان يعاني بهذا ولا مشقة ، ولا كان يعد لموقف من المواقف كما كان غيره من الخطباء أو الكتاب أو الشعراء ، بل كان يقتضب في المناسبات ، وكل حياتهﷺ مناسبات طارئة ، وهذا من المعاني العجيبة في صاحب الرسالةﷺ ، فقد كان يقع الأمر وهو في أصحابه في سفر أو حضر فيقف موقفه فما يشعر الناس إلا وقد هدأت نفوسهم وتحولت اتجاهاتهم ونسوا رعوناتهم وانقادوا للسيد الكريمﷺ ، وكان يحضر أحياناً بعض الخصوم اللد أو الخطباء الوافدون يعد كل لموقفه بين يدي هذا الزعيم الأعظم عدته من متخيرات الأغراض والألفاظ والمعاني ، فربما أوجز وربما أطنب ، والرسول ومن حوله يسمعون ، فإذا سمع الفصل والقول الجزل ، والحكمة البالغة ، والعذوبة السائلة في كلام محمدﷺ ، خر لها رأسه ورؤوس السامعين ساجدين ، ما استطاع أحد أن يأخذ عليه ما أخذ على غيره من عثرة لسان أو خفقة جنان ، ولا كلمة كان ينبغي أن يكون غيرها ، ولا جملة زادت أو نقصت عن حاجتها . . .

ذلكم هو محمد عليه الصلاة والسلام الملهم ، والمؤيد الأعظم ، وكان ذلك عاملاً أعظم من سواه في نشر دعوته ، وصيرورة سمعته ، لأنه من قوم لدّ يتفاخرون بالبيان ، ويتحدون برجاحة الأحلام ، وكانوا ينقادون بألسنتهم ، والفصاحة والبلاغة أعظم مظاهرهم ، وأكبر مفاخرهم ، وأبرز خصائصهم .

لقد كان حديثه في الاضطراب سكناً ، وفي الضلال هداية ، وفي الفقر غنى ورضا ، وفي المرض سلامة وعافية ، ولهذا كانوا يزعمون أنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، ولعمر أبيهم لقد كان سحراً حلالاً يفرق بين الضلال والهدى ، وبين الشقي والسعيد .

وكانﷺ موجز اللفظ يقصد إلى الهدف ويهدي إلى الجادة في القول كما هدى إليها في الفعل ، وهي من خصائص النبوة وآيات العبقرية . ولهذا وصفت البلاغة بين الأدباء بأنها الايجاز ، لأن كل متكلم يستعين على الإفهام ويردد في سياق الكلام لنقص علمه بحاجة السامع ، وعدم اطمئنانه إلى أنه وفيّ . . ولهذا تكثر الإطالة في كلام الأعاجم ومن على شاكلتهم . فأما العرب الخلص فينافسون في لمحة دالة وكلمة جامعة .

وهذا ما جعل السيد الرسول يتحدث بنعمة الله فيقول : (أوتيت جوامع الكلم واختصر لي القول اختصارا) .

ولهذا كله كان ﷺ في غنى عن أن يستعمل الغريب الوحشي ، فهو إنسان يرفض الايحاش ، ويتودد الايناس ويكره الأذى ، ولا يحب أن يشق . . وفي الغريب الوحشي إيحاش وأذى ومشقة ، وإنما يحتاج إليه أحمق قد حاد عن القصد ، أو جاهل لم يجد ما يستعمله من اللفظ العذب ، أو جاف جلف لا يبالي أن يقسو في قوله كما يقسو في فعله .

وقد نزهﷺ من كل ذلك ، وسخر له لغة العرب يتخير منها ويتصرف فيها ويبدل سيئاتها حسنات ، كما فعل ذلك في كل الجهات . فلا غرو أن يصفه الجاحظ بأنه شدد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وبأن الله ألقى على كلامه المحبة ، وجمع له بين القبول والمهابة ، لأنه سهل في إدراكه وفهمه ، صعب على طالب لحاقه ودركه . .

على أنهﷺ كان يحمي تلك العذوبة عن كل ما ينزل بمستواها إلى حد التبذل ، وإنما هو في الحد الوسط . . وإنما المتبذل لا يتفق مع البلاغة في كلام العامة فكيف يكون في كلام سيد المرسلين .

وإن عثرت في كلامهﷺ على شيء من الغريب النسبي ، والوحشي الإضافي ، فلأنهﷺ كان يخاطب غير القرشيين بلغتهم توفيقاً من الله وتعليماً ، واستكمالاً لأدوات البلاغ ، في البلاغة التي هي إيصال المعنى الى السامع من أقرب طريق أوضحه . وتلك ميزة خاصة أيضاً له وهي مما كان مثار العجب بين أصحابه .

قال القاضي في (الشفاء) : (انه علم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ويباريها في نزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه عن شرح كلامه . . ومن تأمل حديثه وسيرته علم ذلك فليس حديثه مع قريش والأنصار وأهل نجد والحجاز ككلامه مع ذي الشعار الهمذاني وطهفة النهدي . . الخ .

على أن في كلامهﷺ من قيود الدين والأدب والمنطق ما كان جديراً أن يحدث ضيقاً في مجال البيان ، أو ضنكاً في معترك الحجاج . فإن التحلل من القيود ضرب من اليسر على المتكلم شاعراً أو كاتباً أو خطيباً أو محاوراً . ولكن السيد الرسول عليه الصلاة

والسلام مع هذه القيود لم تقع له في كلامه زلة ، ولم يسمع بما هو أعم منه نفعاً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناه ولا أبين في فحـواه . . وكان ﷺ يتقيد بالصدق فيما يقول وبمجانبة الخيال والخلابة ، وبما يعرفه الخصم إذا كان في مقام خصومه ، ولكنه مؤ يد ملهم معزز مكرم .

فمن الكلام الذي لم يشـاركه فيه أحـد قولـه (يا خيل اللـه اركبـي) (حمـى الوطيس) (مات حتف أنفه) (لا يلسع المؤ من من جحر مرتين) ومن أدعيته الفخمة المفخمة المعبرة عن كل ما في نفوس المؤ منين الصادقين : (اللهم إنك سألتنا من أنفسنا مالا نملكه الا بك ، فأعطنا منها ما يرضيك عنا) .

(اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وآثرنا ولا تؤ ثر علينا وأرضنا وارض عنا) .

(اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن عمل لا ينفع ، أعوذ بك من هؤ لاء الأربع) .

ومن بارع المجاز والتشبيه قوله : (بعثت في نفس الساعة) (اليد العليا خير من اليد السفلى) (الخيل معقود بنواصيها الخير) (الناس كإبل مائـة لا تكاد تجـد فيهـا راحلة) (الناس معادن : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[1] .

وبعد : فإن رسول اللهﷺ يقول : (جمال المرء فصاحةَ لسانه). ومن فصاحة اللسان وبلاغة البيان أن يحسن الانسان اختيار ألفاظه وعباراته وأن يتجنب التطويل ما دام يستطيع بلوغ قصده بالقليل ، وأن لا يكون كهؤ لاء الثرثارين الذين يدخلون على الناس بالسأم والملل من تطويلهم وإكثارهم في مقالهم .

ورضوان الله تبارك وتعالى على خامس الخلفاء الراشدين الحاكم العادل عمر ابن عبد العزيز الذي اهتدى بهديه واستن بسنته ، فحاول أن يقلل ألفاظـه ، وأن يزيـد في معناها ، ولذلك يقول : (عجبت لمن لاحـــن الناس (أي خاطبهم بفطنة وكياسة) كيف لا يعرف جوامع الكلم . . ؟)أي كيف لا يقتصر على الوجيز ويترك الفضول ؟ فالمراد بالملاحنة هنا المحاورة والمجادلة ، وقد يطلق (اللحـن) على اللغـة والإشـارة والتورية في الكلام . يقال : لحنت لفلان ، إذا قلت له قولاً يفهمه ويخفي على غيره ،

---

(١) مجلة الأزهر مجلد ٢٤/ من مقال للشيخ محمود النواوي .

لأنك تميله بالتورية عن الواضح المكشوف . وكأن الخليفة الراشد يريد أن يقول أن من تعود الحوار والحديث مع الناس يستغرب منه أن لا يعرف جوامع الكلام ، وأن لا يقتصر على الوجيز من القول ، ويترك الفضول والتطويل : (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

الحديث الثاني
الدين النصيحة

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (الدين النصيحة (ثلاثا) . قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله عز وجل ، ولكتابه ، ولرسوله ﷺ ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم) رواه ملسم .

روايات أخرى للحديث :

روى الشيخان هذا الحديث بروايات لمناسبات مختلفة ، فقد رواه مسلم بروايتن واحدة منها هذه التي ذكرناها عن تميم الداري ، والثانية عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم . وعنه رضي الله عنه قال : بايعت النبي ﷺ على السمع والطاعة فلقنني ـ فيما استطعت ـ والنصح لكل مسلم) .

أما البخاري فقد رواه في كتاب الإيمان في باب قول النبي ﷺ (الدين النصيحة لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم) برواية جرير بن عبدالله قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم . .

ثم رواه البخاري في باب البيعة على إقامة الصلاة من كتاب « مواقيت الصلاة » وفي باب البيعة على إيتاء الزكاة من (كتاب الزكاة) ورواه في باب هل يبيع حاضر لباد ؟ من (كتاب البيوع) ولفظه فيه (بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم) كما رواه في كتاب (الشروط) ثم رواه في باب كيف يبايع الامام الناس من (كتاب الأحكام) .

منزلة هذا الحديث من السنة :

لهذا الحديث مكانة جليلة ومنزلة عظيمة ، وعليه وحده مدار الاسلام كله ، حتى

قال أبو داود : (الفقه يدور على خمسة أحاديث : الحلال بينٌ والحرام بينٌ ؛ وقوله ﷺ : لا ضرر ولا ضرار ، وقوله : إنما الأعمال بالنيات ، وقوله : الدين النصيحة ، وقوله : ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فائتوا منه ما استطعتم) .

وقال الحافظ ابو نعيم : (هذا الحديث له شأن عظيم) .

وقال عنه محمد بن أسلم الطوسي : (إنه أحد أرباع الدِّين) .

وقال الإمام النووي : بل هو وحده محصل لغرض الدين كله .

وفي اعتقادنا أنه لا غرابة فيما يقول هؤلاء العلماء ، فمنزلة هذا الحديث من السنة بمنزلة سورة « العصر » من الكتاب المبين : أجمل الدين كله أصوله وفروعه ، كما أجملت السورة الكريمة الدين كله ، أصوله وفروعه كذلك ، في الايمان وعمل الصالحات ، ثم أختصت من بين الصالحات بالذكر ، تواصي المؤمنين بالحق ، وتواصيهم بالصبر . وفصل الكتاب ما أجملته السورة ، كما فصلت السنة ما أجمله الحديث ، وقام الدين الحنيف كاملاً شاملاً صالحاً لكل زمان ومكان على كتاب الله وسنة رسوله معاً ، لا يزيغ عنها الا هالك .

والنصح لكل مسلم يقتضي أن يخلص كل من المسلمين لأخيه كائناً من كان ، ويبادله النصيحة ما استطاع اليها سبيلاً ، فيكون كل منهم ناصحاً ومنصوحاً . . وهذا التناصح الشامل المتبادل ، هو التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، في سورة العصر ، التي بينت أبلغ بيان وآكده انهما ركنا السعادة والفوز في الحياتين بعد الإيمان والعمل الصالح جميعاً .

موقع النصحية من الدين :

لو فطن الناس الى ما في الدين الإسلامي من خير وسعادة ، وتنبهوا إلى ما تشتمل عليه تعاليمه من رشاد وحكمه ، وآثروا إخلاصهم لأنفسهم على تعصبهم لآرائهم وموروثاتهم ، وانصفوا هذا الدين حق إنصافه ـ لبادروا جميعاً إلى اعتناق مبادئه ، والانضواء تحت لوائه ، والاستظلال برايته ، ولسارعوا إلى الاعتصام بحصنه الحصين ، والاستمساك بحبله المتين .

فهذا مبدأ التناصح الذي ينادي به الناصح الأعظم ، ﷺ ، ويعتبره كل الدين ،

لو أن الناس عمموه فيما بينهم ، وترسموه في معاملاتهم وأحوالهم ، واتبعوا هديه في كل أمورهم ، وجميع شئونهم ، لسعد حال الإنسانية ، وعاشت آمنة مطمئنة ولتجنبت كثيراً من المشاكل والشرور التي هي في الغالب ليست الا نتيجة لترك التناصح ، ولشيوع سوء الظن ، وانتشار فقدان الثقة بين الأفراد والجماعات .

والنصحية وظيفة الأنبياء والمرسلين ، فما من نبي أرسل لقوم إلا كان لهم ناصحاً أميناً ، وحكيماً مرشداً ، لا يألو جهداً في نصحهم ولا يقصر في ارشادهم ، ألا تستمع إلى سيدنا نوح عليه السلام ، وهو ينصح قومه فيقول : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) فيقول الملأ من قومه : (إنا لنـراك في ضلال مبين) فيقول لهم : (يا قوم ليس بي ضلالـة ولكنـي رسـول رب العـالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلـم من الله ما لا تعلمـون) ويقـول : (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) .

واستمع إلى سيدنا هود عليه السلام وهو يقول لقومه مقالة أخيه نوح : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره : فيقول الملأ الذين كفروا من قوله : (إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين) فيقول لهم : (يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) واستمع إلى سيدنا ابراهيم عليه السلام : (إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين) .

واستمع إلى سيدنا صالح وإلى سيدنا شعيب وإلى غيرهم من الأنبياء والمرسلين فكلهم كانت وظائفهم مع قومهم النصح والإرشاد .

وهذا سيدنا رسول الله ﷺ لما جاء عتبة بن ربيعة في جماعة من قومه منهم أبـو البختري والأسود بن عبد المطلب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل وقالوا له : (إن كنت تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الأمر الذي يأتيك رئيا قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر ، قال لهم عليه الصلاة والسلام : (ما بي ما تقولون ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني

أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوا على أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم) .

والتناصح هو تبادل إخلاص الحب ، واكتساب الفضائل بالإرشاد الى طريق الخير ، وهو أقوى دعامة يقوم عليها أساس الدين وصلاح المجتمع ، وأعظم فضيلة تدل على صفاء وإخلاص القلب ومروءته وشفقته ؛ لأن الإنسان لا يعنى إلا بمن يحب ، ولا ينصح إلا من يهمه أمره ، ولكن الإسلام الذي من أهم مقاصده نشر الخير ، وتبادل الحب ونفع الغير ، ومحاربة المنكر وقمع الشر ، أمر المسلم بأن ينصح لأخيه ، ويدله على سبيل الرشد ويهديه ، وأن يأخذ بيده ليبعده عن سبيل الغي وينجيه ، وأن يهتم بخيره اهتمامه بخير نفسه ، ففي الحديث : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبُّ لنفسه) والله تعالى يقول : (إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر). فلا يكون مؤمناً صادقاً ، الأناني الذي لا يبالي إلا بنفسه ، ولن ينجو من الخسران ويسعد بالفلاح إلا من صدق إيمانه ، فدفعه إلى عمل الصالحات ، ونفع الناس بدعوتهم إلى ما فيه فلاحهم وصبر على ذلك ، لأنه أحب الكمال لذاته ، فكمل نفسه وسعى في كمال غيره . . ومن زعم أن الإيمان يصدق بصلاح النفس فقط فهو خاطىء أشد الخطأ ، بل ينبغي ان يكون المؤمن نبراساً يهدي الضال إلى سواء السبيل ، وأن يسطع نور إيمانه ، فينبعث حوله متدفقاً من أدبه وعمله ولسانه ، فيجلو ظلمة الجهل عن بصائر أهله وقرنائه وإخوانه .

المؤمن الصادق يجب أن ينصر الحق لأنه عرفه فأحبه ، وأن يحارب الشر لأنه مقته فاجتنبه ، وأن ينفع الناس لأنه يحب لغيره ما يحب لنفسه ، فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويسعى إلى خيرهم بماله ونفسه ، فإن (خير الناس أنفعهم للناس) ، فهو بهذا ممن أثنى الله عليهم في قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . . .) .

فالنصحية من أقوى اسباب الصلاح والاستقامة التي بها سعادة الناس في الدارين ، ولذلك أكد الله تعالى الأمر بها في كثير من أي الذكر الحكيم ، وأمر المسلمين بأن يكونوا دعاة إلى الخير ، ناشرين للفضائل ، محاربين للرذائل ، فقال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ،

وأولئك هم المفلحون) .

إن كثيراً من الناس يأتي المنكر بجهالة ، وينسى ربه ودينه في غفلة وغباوة . . فالنصح يعلم الجاهل ، وينبه الغافل ، ويذكر الناسي ، ويخجل العاصي ، فكم من قلب استنار بالنصيحة بعد ظلمة ، وكم من نفس تنبهت بعد غفلة ، وكم من غويٍ اهتدى بعد ضلاله ، وكم من سفيه رشد بعد جهالة ، ولذلك يقول الله تعالى : (وذكرٌ فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

ولأهمية التناصح وعظيم فائدته وشدة الحاجة إليه ، أشرك الله النساء في هذا الغرض العظيم ، وساوى المرأة بالرجل في الدين والدعوة اليه ، واعطاها ووعدها والرجل الفلاح والرحمة إذا هما قاما بهذا الواجب ، فقال : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم) .

فيجب بعد هذا الوعد من الله الذي لا يخلف وعده أن لا تقصر مؤمنة أو مؤمن في النصيحة معتذرات أو معتذرين بأن لذلك النصح رجالاً تخصصوا له في معاهد العلم والدين ، والله لم يقل ذلك ، وإنما قال : (المؤمنون والمؤمنات . . . فإما أن يكن ويكونوا مؤمنات ومؤمنين فيأمرن ويأمروا بالمعروف ، وإما أن يقولوا إنهم ليسوا أهلاً لهذا الدين . قال تعالى : (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور) . .

وكما قلنا إن النصيحة في الواقع إنما تنبعث عن الرغبة الأكيدة في مصلحة المنصوح له ، وعن الاهتمام بشأنه ، والقصد إلى ما يعود عليه بالخير والنفع ، ولا شك أن المنصوح إذا شعر بكل ذلك من جانب الناصح ، اطمأن اليه ، ووثق به ، وإذا توافرت الطمأنينة في النفوس ، وتبودلت الثقة بين الناس ، فإنهم يستطيعون أن يحيوا حياة سعيدة هانئة ، خالية من كثير مما نراها اليوم مشحونة به من متاعب وآلام .

والنصح لكل مسلم الذي أوصى به الرسول الأعظم ﷺ : أنه يقتضي أن يخلص كل مسلم لأخيه المسلم كائناً من كان ، ويبادله النصيحة ما استطاع اليها سبيلاً ، فيكون كل منهم ناصحاً ومنصوحاً . . وهذا التناصح الشامل المتبادل ، هو التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، في سورة العصر ، التي بينت أبلغ بيان واكده أنهما ركنا السعادة والفوز في الحياتين ، بعد الإيمان بالله والعمل الصالح جميعاً .

ومهما تختلف درجات النصح وتتعدد مناحيه وشئونه في الـدين والـدنيا ، فإنـه نصحان : عام وخاص :

فأما النصح العام ، فهو في أبـواب الحـلال والحـرام مما يستـوي فيه الخاصـة والعامة ، والعالم وغير العالم ، وهذا لا يُعذر أحد بجهله ، فإن الحلال بينّ والحرام بينّ ، وان من الحرام البينّ الغش في المعاملة ، والخديعة والنفاق في النصيحة ، وهذا النوع من النصيحة فرض عين على كل مسلم . وعلى كل جاهل أن يتعلم الضروري من دينه ، ليعمل به وينصح فيه ، وإلا كان آثماً ومقصراً ، وبعيداً عن أخلاق المؤمنين وسماهم (المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . .)

وأما النصح الخاص ، فهو دقائق الفقه ، وأسرار الشريعة ، ومسائل الاجتهاد والاستنباط ، وما إليها من معضلات السياسة ، ومشتبهات الأمور ، وتدبير الملك في حدود ما أنزل الله على رسوله . . وتلك مرتبة خاصة لا ينهض بأعبائها إلا أولو الأمر من الأئمة المجتهدين والعلماء الراسخين ، ممن اختارهم حملة لشريعته .

ولئن جاز أن يكون هذا النوع الخاص من النصح موضـع بحث بين العلماء في أنه فرض كفاية ، أو فرض عين على كل مستطيع له ، إنه لا جدال في أن النصح في هذا الحديث مطلق ، وان الحديث يدعو كل مسلم ألا يألو جهداً في النصيحة على قدر علمه ووسعه (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

فهذا الحديث في ايجازه الجامع ، وإجمالـه الرائـع ، بـينّ منزلـة النصيحـة من الدين ، فجعلها عماده وملاكه ، بل جعلها الدين كله أصوله وفروعه وآدابه ، وتلك هي خصال الإسلام والإيمان والإحسان ، في حديث جبريل عليه السلام ، الذي قال العلماء فيه : انه في السنة ، بمنزلة الفاتحة من الكتاب ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه في خاتمة هذا الحديث : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ، فجعل تلك الخصال كلها دينا . .

وإذا كان حديث تميم هذا مجمـلاً بالقياس الى ما سواه في أحـاديث النصيحـة المفصلة ، فإنه على إجمالـه وإيجـازه ، جماعهـا وعمادهـا ، وإليه مردهـا في مقصدهـا ومغزاها .

المعاني والتصوير

كيف لا يكون هذا الحديث النبوي الشريف جامعاً للكثير من المبادىء والتعاليم الاسلامية وهو يقرر في عبارته الوجيزة الجامعة ، ولغته السهلة الواضحة ان قوام الدين ، وعماد الاسلام إنما هو بذل النصح ، وإسدائه لمن هو أهل له .

وإمام المربين ﷺ ؛ يربي أمته بالإجمال ثم التفصيل،فقد بين للناس ما نزل إليهم ، متدرجاً في البيان تدرج التنزيل ، ثم يتبع هذا التفصيلِ إجمالاً جامعاً في بيان رائع ، هو الشمس ساطعة والنهار دليلاً .

فهو يعلم أساطين التربية وعلم النفس والاجتماع ، في أرجاء دنيانا الحديثة ، أن منتهى ما بلغوه من أسس ، وما وضعوه من قواعد ، وما طاروا به فرحاً وتيهاً من كشف اجتماعي زعموا انه جديد ، او نهج تربوي اتفقوا على أنه رشيد ، هل يعلمون أن ذلك كله ، وما هو أقرب منه نفعاً ، وأعظم منه رشداً ، من المبادىء الاولى في منهاج التربية النبوية التي جاء بها استاذ الانسانية ، وهادي الناس الى الخير والحق ، و مخرجهم من الظلمات الى النور .

فقد بين الحديث اجمالا موقع النصيحة من الدين ، ثم بينّ تفصيلا لمن تكون النصحية ثم ترك تفصيل ما ينبغي للناصح والمنصوح ، لأحاديث اخرى ومناسبات تالية .

وأول ما يجدر التنبيه اليه من أخص خصائص البلاغة النبوية العالية التي لا تعالى دقته المتناهية في اختيار كلماته . . فاختيار الكلمة عنده أدق من السحر وأهول من البحر . انه ينتقي أمس الفاظ اللغة رحماً بالمعنى ، وافصحها في الدلالة عليه ، وأبلغها في التصوير ، وأحسنها في النسق ، وأبدعها سناء وأكثرها غناء ، وأصفاها رونقاً وماء . . لقد آتاه الله جوامع الكلم ، واختصر له القول اختصاراً ، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، فتجمع له المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة مع حكمة وسمو بلاغة ، لا حشو فيها فيزيد ، ولا تقصير فيقل . .

فكلماته دقيقة مختارة جامعة مجتمعة قدت على قدر معانيها قداً ، ولقد كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب ، وكثرت جوامع كلمه ، وهذا ما دعا أفصح الصحابة يتعجبون له كما مر آنفاً .

فمن جوامع كلمة الطيبﷺ قوله في هذا الحديث الشريف : (الدين النصيحة) فكلمة النصيحة أجمع كلمة وأدلها على اخلاص الناصح ، وعنايته بالمنصوح له ، وقيامه بكل ما ينبغي له من وجوه الخير قولاً وعملاً ، لا جرم أن النصيحة اذ تختلف باختلاف المنصوح .

فهذه الجملة (الدين النصيحة) جامعة من جوامع كلمه صلوات الله وسلامه عليه وهو كلام بكر لم يسبق اليه ، بلغ الغاية في ايجاز اللفظ ودقة المعنى ، ونبالة المغزى وروعة التصوير ودقة التمثيل . واليك شيئاً من ايضاح ذلك :

فإننا اذا عرفنا ان النصيحة اصطلاحاً : هي كلمة يعبر بها عن إرادة الخير للمنصوح له ، ويراد بها الاخلاص لله تبارك وتعالى .

وأنها في اللغة تفيد معنى الخلوص والصفاء ، حيث جاء في « معجم مقاييس اللغة » ان اصل الكلمة يدل ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما . ومنه النصيحة وهي خلاف الغش ، ويقال : هو ناصح الجيب إذا وصف بخلوص العمل ، والتوبة النصوح هي التوبة الصحيحة القويمة التي لا خرق فيها ولا ثلمة ، وناصح العسل هو الخالص الذي لا يتخلله ما يشوبه) .

وفي « أساس البلاغة » انه يقال : نصح الخياط الثوب إذا أنعم خياطته ، ولم يترك فيه فتقاً ولا خللاً .

وقال الراغب الأصفهاني (في مفرداته) النُّصْحُ تحرِّي فِعْل أو قول فيه صلاح صاحبه ، وهو من قولهم : نصحت الودّ أي اخلصته ، وناصح العسل خالصه ، أو من قولهم نصحت الجلد خِطْتُهُ ، والناصِحُ الخيّاط ، والنِّصاحُ الخيط . وقوله (توبوا إلى الله توبة نصوحا) ، فهي أحد هذين : اما الإخلاص ، وإما الإحكام .

وقال المارزي : النصيحة مشتقة من النصح وهي الخياطة بالمنصحة وهي الإبرة ، والمعنى أنه يلم شعث أخيه بالنصح كما تلم المنصحة ، ومنه التوبة النصوح كأن الذنب يمزق الدين والتوبة تخيطه .

وقال الإمام الخطابي : النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له ، وهي من وجيز الأسماء ومختصر الكلام ، بل ليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوفي بها

العبارة على معنى هذه الكلمة كما قالوا في الفلاح ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه .

وإذا عرفنا أن النصيحة مأخوذة من قولهم : نصح الرجل ثوبه إذا خاطه ، فشبهوه فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب أو أنها مأخوذة من قولهم نصحت العسل من الخلط ، إذا عرفنا هذا ، أدركنا مقدار ما تنطوي عليه هذه الوصية النبوية الكريمة من شمول لتعاليم الاسلام ، وتناول لمبادئه الرشيدة . فكلمة الدين مساوية لكلمة النصيحة ، إذ أن الدين يطلق على العمل ولذا فقد سمى النصيحة ديناً ، وعلى هذا المعنى بنى البخاري اكثر كتاب الإيمان .

فالدِّين يقال للطاعة والانقياد للشريعة قال الله تعالى : (إن الدِّين عند الله الإسلام) وقوله (وأخلصوا دينهم لله) وقوله تعالى (لا إكراه في الدين) قيل يعني الطاعة فإن ذلك لا يكون في الحقيقة الا بالاخلاص ، والاخلاص لا يتأتى فيه الإكراه .

فلو نظرنا إلى معنى كلمة الدين ومعنى كلمة النصيحة في الاصطلاح اللغوي لوجدنا ان كلمة الدين تدل على الطاعة والانقياد والإخلاص وكذلك كلمة النصيحة تدل على الإخلاص والانقياد والطاعة .

قال ابن الأثير : نصيحة الله صحة الاعتقاد في وحدانيته وإخلاص النية في عبادته ، والنصيحة لكتاب الله والتصديق به والعمل بما فيه ، ونصيحة رسوله التصديق بنبوته ورسالته والانقياد لما أمر به ونهى عنه ، ونصيحة الأئمة أن يطيعهم في الحق ، ونصيحة عامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم) .

فالنصيحة تشمل خصال الاسلام والإيمان والإحسان التي ذكرت في حديث جبريل عليه السلام ، وسمى كله ديناً .

فقوله ﷺ (الدين النصيحة) يحتمل أن يحمل على المبالغة، أي معظم الدين النصيحة ، كما قيل في حديث (الحج عرفة) ، ويحتمل ان يحمل على ظاهره لأن كل عمل لم يرد به عامله الإخلاص فليس من الدين .

وهذه ميزة من مزايا البلاغة النبوية وخاصية من أخص خصائصها التي انفرد بها النبي عليه الصلاة والسلام عن غيره من البشر وهي تمكنه من اللغة وامتلاكه زمامها ،

وغوصه إلى أعماقها ، ونفاذه الى اسرارهـا ، حيث يستخـرج الألفـاظ الغنية الجامعـة المجتمعة ، التي تعطي المعاني الغزيرة في الفاظ قليلـة ، ولأمـر ما قال عليه الصـلاة والسلام : (أعـطيت جوامـع الكلـم) وقولـه (الـدين النصيحـة) من هذه الكلـم الجوامع ، وقد كثر في البلاغة النبوية هذا النوع من الكلم الطيب الجامع التـي هي حكمة البلاغة ، وهذا النوع هو أكثر كلامهﷺ ـ كما سبق أن ذكرنا ـ .

فقد كانﷺ موجز اللفظ يقصد إلى الهدف ، ويهدف الى الجادة في القول كما هدى إليها في الفعل ، وهي خصائص النبوة وآيات العبقرية .

ولهذا وصفت البلاغة بين الأدباء بأنها الايجاز ، وكان العرب يميلون الى الايجاز في القول ، ويعدون الإيجاز بلاغة ، وذلك لأنهم لم يكونوا أهل قراءة وكتابة ، بل كانوا أهل بيان باللسان وقد صقلت بذلك كلماتهم وهذبت عباراتهم ، وقد قال الجاحظ ان الأيجاز في القرآن كان عند محاجة العرب الأميين الذين يفهمون القول بالـكلمات المشيرة غير المفصلة ، والتفصيل من شأن من يعتمد على الكتاب دون اللسان . .

ولقد كانوا يتبارون في الكلام الذي تدل ألفاظه على معان كثيرة ، وكانوا يعدون من أبلغ كلامهم قول بعض العرب ، (القتل أنفى للقتل) أي من يريد القتل إذا علم أنه سيقتل ، فإنه لا يقتل .

ولقد جاء ايجاز الحديث النبوي الشريف أعلى من سائر كلام العرب ، وأسمى انواع البيان . فايجازه تهذيب الـكلام . بمـا يحسـن به البيان ، وتصـفية الألفـاظ من الكدر ، وتخليصها من الدرن ، والبيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، وإظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير .

ولقد صدق الجاحظ حين وصف كلام المصطفىﷺ بقوله : (هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف) .

ولقد كرر الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : (الدين النصيحة) ثلاثاً تأكيداً وتثبيتاً وتنويهاً بجلال شأن النصحية في الإسلام ، فكأنها الدين وجوهر الملة . .

والتوكيد من أهم العوامل لبث الفكرة في نفوس الجماعات ، وإقرارها في قلوبهم إقرار ينتهي إلى الايمان بها . . وقيمة التوكيد بدوام تكراره بالألفاظ عينها ، ما أمـكن

ذلك ، فالمعنى إذا تكرر تقرر ، كما قال علماء النفس والمجتمع : (فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً ، تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة[1]) .

وللتكرار تأثير في عقول المستنيرين وتأثير أكبر في عقول الجماعات من باب أولى ، والسبب في ذلك أفعال الإنسان ، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار ، وانتهى بتصديق المكرر)[2] .

واستخدم الحديث الشريف التوكيد وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس السامعين ، وإقراره في أفئدتهم ، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم .

وقد كرر الحديث الشريف الجملة المؤكدة عدة مرات بألفاظها نفسها ، علماً من المربي الأعظم بما لذلك من أثر في النفس، فتراه مثلا يقول : والله لا يؤمن (ثلاثاً) قيل مَنْ يا رسول الله قال : من لا يأمن جاره بوائقه) .

ويقول مرة أخرى : (ألا وقول الزور ، ألا وقول الزور ، ألا وقول الزور) وغير ذلك كثير في كلامه ﷺ .

ولك أن تسأل لِمَ كرر القول بعبارة واحدة ثلاث مرات ؟ ولِمَ لم تكن أقل من ذلك أو أكثر ؟

نقول : إنه ﷺ جرى على عادة العرب في مألوف كلامهم لأن الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثا سمع وفهم ، ولذلك كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة اعادها ثلاثا حتى يفهم ، وإذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثاً ، وعن ابي موسى الأشعري : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الاستئذان ثلاث) .

وقال ابن وهب قال مالك : الاستئذان ثلاث ، ولا أحب أن يزيد أحد عليه ، إلا من علم أنه لا يسمع .

وورد في الصحيح أنَ ابا موسى رضي الله عنه حين استأذن عمر رضي الله عنه ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع عبدالله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه ، فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك ، قال إني استأذنت

---

(1) روح الاجتماع/ ١٣٩ .

(2) روح الاجتماع/ ١٣٩ .

ثلاثاً فلم يؤ ذن لي وإني سمعت النبيﷺ يقول : (إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤ ذن له فلينصرف) . .

فتكريرهﷺ (الدين النصيحة) يقرر اهمية النصيحة ودور التناصح في سعادة المجتمع وسلامته ، وإذا تكررت هذه الجملة (الدين النصيحة) في النفس انبثق منها العمل الصالح ، المبني على أساس من الإخلاص والخلوص لله والنهوض بالواجبات .

ثم ينتقل بنا الحديث الشريف بعد تقرير هذه الحكمة الاجتماعية السامية ، إلى بيان من تجب لهم النصيحة وذلك عن طريق السؤ ال والجواب ، واسلوب الحوار بين الاستاذ وتلاميذه ، مما يوحي بالتجاوب والتفاعل ويهيء الاذهان ، ويشوق النفوس ، ويفتح العقول لتلقي المعلومات القيمة ، والحكم النبوية السامية .

وأنت تلحظ قوة تأثير هذا الاسلوب في نفوس السامعين حين كرر الرسول قوله (الدين النصيحة) حين سأل المستمعون بصوت واحد : (لمن يا رسول الله ؟) قال : لله ، ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

وهكذا ندرك مدى عمق هذه التجربة التربوية الرائدة في عالم النفس والضمير ، حيث يلقننا المربي الأعظم واستاذ البشرية كيف تتم العملية التعليمية الإرشادية الهادفة ، فلا بد أولا من اثارة انتباه السامع وايقاظ ملكاته الشعورية ، وتهيئة نفسه وعقله للتلقي والاستيعاب . وهذه الحقيقة النفسية لم يعرفها علم التربية وعلم النفس الا حديثاً ، فسبحان من علم رسولنا وأرشده الى أقصر الطرق التربوية وأخصرها وأدومها وأرسخها .

فقد استهل حديثه بكلمة جامعة شاملة (الدين النصيحة) وأكد وجوبها على كل احد تأكيداً قاطعاً ، فليست المسألة اذن قاصرة على فئة دون فئة أو طائفة دون طائفة بل الكل في هذه المسألة سواء . وما دام الامر كذلك فعلى الجميع أن يتعرف ما يجب عليه حتى لا يقع تحت مقت الله وغضبه بسبب تقصيره في امر من الأمور الواجبة عليه .

فهذه العبارة المكررة بلغت غاية الإثارة ومنتهى شد الانتباه وإيقاظ الشعور ، وارهاف الحس . وكأننا نسمع الآن صوت الصحابة الكرام المتسائل : (لمن يا رسول الله) تلك الجملة التي تدل دلالة قاطعة على عمق التأثير . فجاء الجواب في وقته المناسب ومكانه اللائق : (لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

وهنا تلحظ هذا الترتيب البديع في القيام بواجب النصيحة فالله أولا ، وكتابه ثانياً ، ورسوله ثالثاً ، وأئمة المسلمين ثم عامتهم أخيراً ، حيث بدأ بالاهم فالمهم ، ومن له الصدارة في كل شيء وعليه الاعتماد في كل شيء .

فما معنى النصح لله ؟

للعلماء اقوال كثيرة في معنى النصح لله . فقيل معناه : الإخلاص لله سبحانه في جميع الأمور ، وذلك مصروف الى الإيمان به ، ونفي الشريك عنه ، وترك الإلحاد في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال ، وتنزيهه عن جميع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، والحب فيه ، والبغض فيه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وجهاد من كفر به ، والاعتراف بنعمته ، وشكره عليها ، والدعوة الى جميع هذه الأوصاف والحث عليها ، والتلطف في جمع الناس ، أو من أمكن منهم حولها .

فالنصيحة لله : صدق الإيمان به ، وصدق الاعتقاد في وحدانيته ، وإخلاص النية في عبادته ، والحب فيه والبغض فيه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، ووصفه بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص .

ومن النصح الواجب لله أن لا يرضى بمعصية العاصي ، ويحب طاعة من أطاع الله ورسوله ، قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) .

وروى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر ، إلى أن قال : وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم) .

وروى البيهقي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : لا تقفن عند رجل يقتل مظلوماً فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه) وقال عليه الصلاة والسلام : (لا ينبغي لامريء شهد مقاماً فيه حق إلا تكلم به فإنه لا يقدم أجله ولن يحرمه رزقاً هو له) .

وروى الشيخان : عنه عليه الصلاة والسلام : قال : (إن الله يغار وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه) .

وروى الثوري عن عبدالعزيز بن رفيع عن أبي ثمامة صاحب علي قال :

الحواريون لعيسى عليه السلام : يا روح الله من الناصح لله ؟ قال : الذي يقدم حق الله على حق الناس ، وان عرض لك أمران أحدهما لله تعالى ، والآخر للدنيا ، بدأت بحق الله تعالى .

وقيل : النصيحة لله وصفه بما هو له أهل ، والخضوع له ظاهراً وباطناً ، والرغبة في محابه بفعل طاعته ، والرهبة من مساخطه بترك معصيته ، والجهاد في رد العاصين إليه)[1] .

وخلاصة القول: النصح لله معناه الإخلاص له، والنهوض بواجباته وأداؤ ها كأحسن ما يكون الأداء ، وإنما يتحقق النصح لله على وجهه الكامل إذا بلغ المرء في إخلاصه درجة (الإحسان) التي يعبد فيها الانسان ربه كأنه يراه ، فان لم ير المرء ربه فان ربه يراه ، والطريق الى ذلك تجنب المحرمات والمكروهات ، وأداء الفروض والواجبات، والتقرب إليه بالنوافل والطاعات، أو كما قيل: النصيحة لله سبحانه هي صحة الاعتقاد في وحدانيته ، وإخلاص النية في عبادته .

ومهما قال العلماء ومهما سيقولون فستظل اقوالهم أقل من أن تصل الى تحديد مراده ﷺ ، وتلك من مزايا اسلوبه الجامع المجتمع السهل الممتنع الذي يعطيك المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة .

ومن ثم يثنى الحديث الشريف بوجوب النصيحة لكتاب الله تعالى . فما معنى ذلك ؟

قيل معناه : الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله ، لا يشبهه شيء من كلام الخلق ، ولا يقدر على مثله احد منهم ، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته ، وتحسينها والخشوع عندها ، وإقامة حروفه في التلاوة ، والذَبٌ عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف على أحكامه ، وتفهم علومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه ، والتفكر في عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والبحث عن عمومه وخصوصه ، وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه ومعارفه .

فالنصيحة لكتابه الكريم : تكون بإجلاله وتعظيمه ، وتعلمه وتعليمه ، والعمل به ، والتأدب بآدابه ، والتخلق بأخلاقه ، والذب عنه ، والدعاء إليه ، والانفاق في سبيله .

---

(١) فتح الباري ١/ ١٣٨ .

ويذكر الحديث ثالثاً : أن النصيحة واجبة للرسول ﷺ ، ومعناها كما قيل : (تصديقه على الرسالة ، والإيمان بجميع ما جاء به ، وطاعته في أمره ونهيه ، ونصرته حياً وميتاً ، ومعاداة من عاداه ، وموالاة من والاه ، وإعظام حقه وتوقيره ، وإحياء طريقته وسنته ، وبث دعوته ، ونشر شريعته ونفي التهمة عنها ، واستثارة علومها ، والتفقه في معانيها والدعاء اليها ، والتلطف في تعلمها وتعليمها ، وإعظامها وإجلالها ، والتأدب عند قراءتها ، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم ، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبة أهل بيته وأصحابه ، ومجانبة من ابتدع في سنته ، وما الى ذلك . .

ويذكر رابعاً أن هذه النصيحة واجبة لأئمة المسلمين ، إذ المراد بهم الرعاة وغيرهم ممن يقومون بأمور المسلمين من أصحاب الولايات ، فمعنى النصيحة لهم في هذه الحالة : معاونتهم على الحق ، وطاعتهم فيه ، وأمرهم به ، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف ، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين ، وترك الخروج عليهم ، وتألف قلوب الناس لطاعتهم ، والصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، وأداء الجبايات اليهم ، وتعهدهم بالتذكير والإرشاد إذا ظهر منهم حيف ، أو سوء عشرة ، وعدم تغريرهم بالثناء الكاذب عليهم ، والدعاء لهم بالصلاح والتوفيق .

وأما اذا كان المراد بهم الأئمة الذين هم علماء الدين ، فمعنى النصيحة لهم :

قبول ما رووه ، وتقليدهم في الأحكام ، وإحسان الظن بهم ، وإجلالهم وإكبارهم) .

والنصح لأئمة المسلمين وولاتهم أمر مهم في نظر الاسلام ، ولذلك يقول الحديث (إن الله يرضى لكم ثلاثاً : يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم) .

وفي المسند عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال في خطبته بالخيف من مني : (ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين) . والمعنى ان هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب ، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر .

هذا وقد وردت في معنى الحديث طائفة أحاديث منها : (من لا يهتم بأمر

المسلمين فليس منهم ، ومن لم يمس ويصبح ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم)[1] .

وقال الله عز وجل : أحب ما تعبدني به عبدي النصح لي .

وفي الصحيحين عن معقل بن يسار عن النبيﷺ قال : ما من عبد يسترعيه الله رعية ثم لا يحطهابنصيحته الا لم يدخل الجنة) هذا ومن أعظم أنواع النصح أن ينصح لمن استشاره في أمره كما قال عليه الصلاة والسلام : (إذا استنصح احدكم اخاه فلينصح له) وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال : (بايعت النبيﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم) .

* * *

وبعد : فهذا ما عرض له الحديث الشريف في بيان من تجب لهم النصيحة ، وهو كما نرى لم يدع احدا ، من الخالق الى الخلائق ، الا وقد نبه على الواجب نحو من النصيحة ، فيا ليت شعري ، كيف يكون حال الانسانية لو أنها اخذت بهذاالمبدأ ، وسارت عليه ، وترسمت طرقه ؟ إنها ستجد عالماً مثالياً ، مملوءاً بالأمان والاطمئنان ، وحافلاً بالهدوء والاستقرار ، وانها ستتجنب كثيراً من شرور الحياة وويلاتها ، وأوضار المدنيات وأوزارها ، لأن الأفراد والأمم والدول الواقف كل منها بالمرصاد للأخرى ، لو ساست أمورها على ضوء التناصح ، وتفاهمت فيها على مقتضى ما يدعو اليه من إخلاص وحسن نية ، لأنتج ذلك أن كثيراً من الخلافات الشخصية ، والمنازعات الدولية ، والمشاكل العالمية ، ينتهي خطرها ، ويزول أثرها ولا يكون لها وجود فوق رقعة الأرض . . فأنعم بالإسلام ، وبني الإسلام ، وبما جاءت به شريعته الحكيمة من أنظمة دقيقة ، ومثل عليا !!!

وغني عن البيان ان هذه النصائح الخمس جاءت متلازمة مترابطة ، ويمكن أن تغنى إحداها عما عداها . لكنها ذكرت كلها متعاطفة بالتعظيم حق الله وحق كتابه وحق رسوله ، وحق أئمة المسلمين وحق عامتهم ، وتوكيد ما ينبغي لكل منها من الأخلاص والتوقير .

وبعد : فهذه كلمات مجملة في هذا الحديث الجامع ، الذي نحسب أنه أصل لكل حديث بعده في النصح والدعوة .

نسأل الله جلا جلاله أن يوفقنا لقول الكلمة الطيبة المخلصة وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؟

---

(١) اخرجه الطبراني بإسناد ضعيف .

الحديث الثالث

السبع المهلكات

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : (اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) رواه البخاري ومسلم .

المعاني والتصوير :

إن الله قد فرّق بعلمه وحكمته وهديه بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، فجعل لنا الحلال بيّناً والحرام بيّناً ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويهدي من يريد الاهتداء إلى سواء السبيل ، وهناك طائفة من كبائر الآثام وعظائم السيئات لا يليق بالمسلم أن يقترفها أو يدنو منها ، وفي هذا الحديث أخبرنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ عن سبع منها ، فقال : (اجتنبوا السبع الموبقات : أي المهلكات إهلاكاً ماحقاً .

وهذا النص النبوي الجليل يحدثنا عن طائفة من المآثم والكبائر التي تستوجب غضب الله ونقمته وعذابه ، وقد قال عنها رسول الله ﷺ : (المهلكات) .

وقد استهل عليه الصلاة والسلام هذا الحديث الشريف بهذه الجملة السامية (اجتنبوا السبع الموبقات) وتعد براعة عظيمة ، ودقة متناهية . وهذه البراعة تأتي من عدة أمور أولاً من فعل الأمر (اجتنبوا) وهي كلمة دقيقة مختارة مصورة لمعناها أبدع تصوير ، وهي مشتقة من مادة الجنابة وهي في الأصل البعد ، ومعنى الاجتناب الحذر والابتعاد عن هذه الكبائر .

فالرسول المربي العظيم الذي يعرف خبايا النفس ومكنوناتها لا يقول إياكم والشرك ، والسحر ، والقتل . . الخ أو لا يقول : لا تقعوا في واحدة من هذه الأمور ،

بل يحذر المسلم من مجرد الاقتراب من دائرة هذه الموبقات ، لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

فكل ما يقرب من الشرك شرك يجب على المسلم أن يحذره ويباعد بينه وبينه بل يفر منه فراره من المجذوم ، وكل ما يقارب بين المسلم وبين السحر وأعمال السحرة فعليه ألا يقترب منه مجرد اقتراب ، حتى لا يؤدي هذا الاقتراب الى الوقوع في هذه الموبقة المدمرة، وكل ما من شأنه أن يثير غريزة الغضب ويدفع إلى الاعتداء وايذاء الآخرين بالسب أو بالضرب أو بالقتل فعلى المسلم أن يحذره وأن يجعل بينه وبينه حجاباً وستراً سميكاً . . الخ . وبالجملة فالمربي العظيم يرشد المسلم إلى أخذ الحيطة والحذر من الاستهانة بصغائر الأمور ، لأن معظم النار من مستصغر الشرر ، فالأمور الكبيرة تبدأ صغيرة لا يأبه لها الانسان ثم تأخذ في النمو شيئاً فشيئاً حتى يتسع خطرها ويشتد ضررها .

وتأمل دقة اختياره لكلماته ﷺ وحسن اختياره لها ، فبعد أن اختار كلمة (اجتنبوا) قال (السبع الموبقات) ، والموبقات هي المهلكات التي تهلك وتمحق من وقع فيها . يقال : وبق فلان بفتح الباء يبق بكسرها ، ووبق بضم الواو وكسر الباء يوبق إذا هلك وأوبق غيره أي أهلكه .

فهذه الجملة النبوية الشريفة (اجتنبوا السبع الموبقات) بارعة في اختيار كلماتها وطريقة تركيبها ، فهي تبدأ بفعل الأمر (اجتنبوا) الذي يغلب استعمال مادته (الاجتناب) في القرآن الكريم في كبائر الذنوب والمعاصي ، ففي سورة إبراهيم جاء على لسان إبراهيم (واجنبني وبني أن نعبد الاصنام) وفي سورة المائدة (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) وفي سورة الحج : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) ، وفي سورة الزمر (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) وفي سورة النجم (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) . . الخ . .

ثم تأمل ما أفادته كلمة (السبع) المبهمة التي جاءت بعد فعل الأمر (اجتنبوا) فهذا العدد يستدعي إثارة انتباه السامع ويشوقه لما سيأتي بعده من كلام وإرشادات وتوجيهات نبوية شريفة ، فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد ذكر هذه الكبائر السبع مبهمة أولاً لينبه الأسماع إليها ، ويشوق النفوس المؤمنة إلى معرفتها لتحذرها ،

فإذا فصلها بعد ذلك تمكنت من العقول ، فوعتها ، وداومت على تجنبهـا ، ولـذلك وجدنا الصحابة يتطلعون إلى معرفة هذه الكبائر المهلكة لكي يباعدوا أنفسهم عنها ، فقالوا بصوت واحد يدل على أن الاثارة قد بلغت منتهاها حيث (قالوا : يا رسول الله ، وما هن) ؟ فهوﷺ قد شوّق المخاطبـين إلى معرفـة الجـواب الصـحيح على طريقـة الاسلوب التربوي النبوي . فما أروع وأبدع المعرفة والإيضاح التي تأتي بعد الإبهام والغموض .

وليس معنى قوله ﷺ (اجتنبوا السبـع الموبقات) أنـه حصر الموبقـات في هذه السبع ، بل الغرض التنبيه إلى أمثالها ، أو ما زاد فحشه عن فحشها . كالزنا والسرقة والغلول والخيانة في الغنيمة والعقوق واليمين الغموس ، وفراق الجماعة ، وترك التنزه من البول ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمته ، والإضرار في الوصية ، والجمع بين الصلاتين من غير عذر . . فكل هذه وأمثالها من الجرائم المهلكة والموبقات المردية ، التي جاء فيها الوعيد الشديد بالعذاب الأليم .

فاستعمال هذا العدد (السبع) وأمثاله كثير في كلام الرسـول المربـي العـظيم (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان) . (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله) (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً) .

فإن هذه الأعداد وأمثالها تدفع إلى التشويق وإثارة انتباه السامع أو القارىء ، حتى يتفتح قلبه وعقله لما سيلقى عليه ، وليس المقصود منها الحصر والقصر .

قال العلماء رحمهم الله : لا انحصار للكبائر في عدد مذكور ، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن الكبائر أسبع هي فقال هي إلى سبعين . ويروى الى سبعمائة أقرب .

وأما قوله ﷺ الكبائر سبع فالمراد به من الكبائر سبع ، فإن هذه الصيغـة وإن كانت للعموم فهي مخصوصة بلا شك . وإنما وقع الاقتصار على هذه السبع . . وفي الرواية الأخرى ثلاث . وفي الأخرى أربع لكونها من أفحش الكبائر مع كثرة وقوعها لا سيما فيما كانت عليه الجاهلية ، ولم يذكر في معظمها ما ذكر في الأخرى ، وهذا مصرح بما ذكرته من أن المراد بعـض .

ومن هنا فإن لهذا الحديث روايات متعددة تختلف في حصر السبع الموبقات . فقد

عَدَّ هذا الحديث الذي معنا قذف المحصنات الغافلات أشد من (الزنا) في حين أن الزنا يستباح به دم الرجل المسلم وهو قرين القتل والردة كما قال ﷺ : (لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة) .

وقد ذكرت بعض الأحاديث كبائر أخرى كثيرة غير هذه السبع التي ذكرها هذا الحديث سماها رسول الله ﷺ نفسه أكبر الكبائر حين قال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً - قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وجلس وكان متكئاً فقال : ألا وقول الزّور ، قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت) .

وبالجملة فإن هذه العبارة العجيبة في سبكها وتركيبها (اجتنبوا السبع الموبقات) تنبه المخاطبين الى أمر خطير قد يغيب عنهم ، وهو أن الحسنات درجات ، والسيئات درجات ، فما كان من الحسنات نفعه كثيراً كان ثوابه عند الله عظيماً . وما كان نفعه دون ذلك كان ثوابه أدنى . وما كان من السيئات ضرره بليغاً فهو الكبيرة الموبقة والفاحشة المهلكة . وما كان ضرره دون ذلك فهو الصغيرة التي يكفرها مجانبة الكبيرة .

فالذنوب كما ترى - درجات ، فما فحش ضرره فكبيره ، وما زاد فحشه فأكبر الكبائر ، وما قل ضرره فهو الصغيرة ، وكل ما حرم الله ، ومنع مقارفته . والرسول ﷺ يعرض على حاضريه تحديثهم بأكبر الكبائر ، وفي هذا العرض لفتهم إلى ما يحدث به ، وصرف آذانهم لسماعه وقلوبهم لوعية ، وقد كرر كلمة العرض ثلاث مرات حتى يزدادوا تنبهاً ، ويتوجهوا إليه توجهاً ، فقالوا : نعم يا رسول الله حدثنا بأكبرها ، فحدثهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، بثلاث . وليس معنى ذلك حصر هذه الكبائر في هذه الثلاث فقد قال في حديث آخر : إن من أكبر الكبائر أني علن الرجل أبا الرجل فيعلن أباه وأمه) . . .

فعليك أن تتأمل ذلك لتدرك مدى عظمة هدية ﷺ وروعة إرشاده ، وعمق معرفته بالنفس البشرية ، فقد نهج في أسلوبه التربوي نهجاً يعتمد على تحليل النفس البشرية ، فيصف الداء والدواء ، وصف الخبير ، المتفحص الذي يغوص إلى أعماق الاشياء ، ولا يقف عند القشرة والسطح . . فتراه عمد أولا إلى تهيئة نفس السامع وتشويقها وتنبيهها لما يود أن يغرسه فيها ، ثم بعد هذه التهيئة للتلقي لا يهجم عليها هجوماً يذهلها عن التلقي وحسن الاستيعاب وكمال الاستفادة بل يتنقل بين جنباتها في هدوء ويسر ، كما يسري النسيم العليل في النفس العليلة ، فيستل منها أمراضها ،

ويضع فيها الخير والحق والجمال .

هذا ، وأنت ترى أن الحديث الشريف قد مال الى جانب التصوير الفني البديع من أول وهلة في قوله (اجتنبوا السبع الموبقات) فهذا التصوير التمثيلي، يرسم في الخيال صورة من يسير على شفا جرف هار ، يكاد ينهار به في قعر هاوية سحيقة ليس لها قرار ، وإننا نكاد نرى هذا الشقي الذي ترك الطريق السوي ، وأخذ يخاطر بنفسه ويجازف بحياته كالبهلوان الذي يسير على الحبال في الهواء أمثال ما نرى في (السيرك العالمي) وغيره ، ان النفس تتطلع اليه في خوف وإشفاق وأمل ورجاء ، وحتى ينزل سالماً فانه ينتزع إعجاب المشاهدين فيهللون ويكبرون لعمله . . ولكن هذه ليست الصورة التي يرسمها الحديث ، إنها صورة الأشقى الذي يسير على شفير جهنم ، والنيران تتلظى ، وترتفع ألسنتها حتى تكاد ترى على بعد آلاف السنين ، ان عين رسول الله الأمين تراه وتشفق عليه من الاقتراب منها خشية الاحتراق ، خشية الهلاك ، خشية الخلود في قعر جهنم ، فما أشفقه وما أرحمه بنا ، انه يحذرنا من مجرد الاقتراب من هذه المهلكات حتى لا نقع في النار .

إن التردي من مكان مرتفع على الأرض يثير الشفقة حتى ولو كان في الماء الذي أقصى ما يمكن أن يحدث لمن سقط فيه هو الغرق ، فأين الفرق بين الغرق في ماء البحر والغرق في نار جهنم !! فأنزل الحديث الاقتراب من الفواحش التي تقضي على نور اليقين بالهوة السحيقة التي تبتلع من يقترب منها فتطبق عليه وتهلكه . وانها لصورة مرعبة تثير الخوف والرهبة في النفس ، وتدعو الإنسان الى الاحتراس وأخذ الحيطة والحذر الشديدين .

إنها للوحة فنية ناطقة تملأ النفس البشرية روعة وجلالا . . انها البلاغة النبوية التي تعمد إلى امتاع العقل والقلب معاً في آن دون أن يشغلها شأن عن شأن . إنه الأسلوب العالي الذي لا يعالى ، فمن براعة الاستهلاك ، الى الاثارة والتشويق ، فبعد هذا الاغراب والإبهام يجيء التفصيل في حينه إذ تهيأت الملكات الشعورية لاستقبال كل كلمة من فم المصطفى عليه الصلاة والسلام .

تأمل عظمة اسلوبه وروعة بلاغته ﷺ في قوله : (اجتنبوا السبع الموبقات) إذ اقتصر على ذكر المنهيات ولم يذكر المأمورات ؟

والحكمة في التنصيص على ذكر المنهيات دون المأمورات يرجع الى أن الكف أيسر من إنشاء الفعل ، لأن اجتناب المفاسد مقدم على اجتلاب المصالح ، والتخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل ، ولأن المنهيات أقل بكثير من المباحات ، فالله تعالى حرم على الانسان اموراً قليلة ، وأباح له ما عدا ذلك . فمن الحكمة السامية إذن ومن بلاغة القول الذي يأتي على المحز ذكر المحذورات لقلتها ، وتغليظاً وتهديداً لمن يقترب منها . .

وهذه البلاغة النادرة من خصائص الأسلوب النبوي الشريف الذي أعطاه الله جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً ، فأهم سمة من سمات الحديث النبوي وخصائصه الفنية أنه موجز اللفظ ، يقصد إلى الهدف ويهدف الى الجادة في القول كما هدى إليها في الفعل .

ولهذا وصفت البلاغة بين الأدباء بأنها الإيجاز ، الذي يعطي المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة في يسر وسهولة .

ومن هنا فقد وجه الحديث المسلمين الى الابتعاد عن المنهيات بكلمات موجزات هي الغاية في الروعة وغزارة المعاني . . وهنا لا يعمد الى ضرب الأمثلة بالأمور التي تؤدي بمقترفها الى الهاوية ، بل ويذكرها على سبيل المثال لا الحصر ، ويذكرها مرتبة حسب خطورتها .

وميزة أخرى تمتاز بها السنة النبوية ولا تكاد تجدها في كلام سائر البشر إلا في النزر اليسير ، ولكنها في كلام المصطفى ﷺ روح سارية لا يعتريها ضعف ولا وهن . تلك الخاصية هي جمع المعاني المتفرقة التي تربطها روح واحدة تكون هي المقصد الاساسي فيها ، ومن الشواهد على ذلك ما نراه في هذا الحديث الشريف حيث يدور ما ذكر فيه من أمور على محور واحد هو: (المهلكات) فما من واحدة من هذه الكبائر السبع إلا وتراها داخلة في زمرة هذه المهلكات التي تمحق دين صاحبها وتهلكه إهلاكاً .

ثم بين الحديث بعد ذلك هذه السبع بياناً شافياً وافياً : فذكرها مرتبة حسب كبرها وفحشها وخطورتها ، فيقول إن أكبر الكبائر ، وأعظم الذنوب هو : (الشرك بالله) ، وتلك أكبر جريمة أن تجعل لمن خلقك نداً ، وأن تشرك به ما لا يملك ضراً ، ولا نفعاً ، ولا حياة ولا موتاً ، وأن تشرك به أمواتاً غير أحياء عجزة غير أقوياء ، وأن تشكر من لا نعمة له عليك ولا يد له واصلة إليك .

والشرك بالله ، واتخاذ الأنداد ، والوسطاء ، والأولياء والشفعاء ، ودعاؤهم في الملمات كما يدعي ، وعبادتهم كما يعبد ، والتقرب إليهم بالقرابين والنذور وضروب التقديس ، كل هذا من أفحش الفواحش وأكبر الكبائر ، وهو أسس الرذائل ، وجماع الشرور والأثام .

وهذا هو سرّ ابتداء الرسول عليه الصلاة والسلام بالتحذير من هذه الكبيرة ، لأنها رأس كل خطيئة وأساس كل كبيرة . . ولذا قال تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) وقال تعالى : (ومن يكفر بالله فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) ، وأي ذنب أعظم من أن يجعل المخلوق لخالقه شريكاً آخر ، ملكاً كان أو انساناً أو جماداً أو كوكباً أو غير ذلك .

فان الشرك أقبح الذنوب وأعظمها كما قال رسول الله ﷺ عندما سأله أحد صحابته أي الذنب أعظم قال : أن تجعل الله نداً وهو خلقك . قال قلت له : إن ذلك لعظيم ، قال قلت ثم أي قال ثم ان تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال قلت ثم أي قال ثم أن تزاني حليلة جارك) رواه مسلم . فأنزل الله عز وجل تصديقاً لذلك : (والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) ولهذا فقد بدأ عليه الصلاة والسلام بذكر الشرك في مقدمة الذنوب كلها ، لأنه الأصل الذي تتفرع عنه ، ولأن الله تعالى يغفرها جميعاً ولا يغفر الشرك : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) ، وقوله : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) . .

وقد بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة على ترك الموبقات والتطهر من ستة من الخبائث هن جماع الموبقات ، وأصول المهلكات ، وذكر في أولهن (الإشراك بالله) في الحديث الذي رواه الشيخان عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال : وحوله عصابة من أصحابه (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له . ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك) رواه الشيخان واللفظ للبخاري .

فأنت ترى أن أول ما عاهد النبي عليه الصلاة والسلام صحابته وأمته عليه هو التطهير من رجس الشرك في كل صورة من صوره ، لأنه منبع كل بلاء ، وموطن كل داء ، لا يرفع معه إلى الله عمل ، ولا يزكو في أرضه نبت ، وقد اتفقت رسالات الله كلها على أن الشرك أكبر الكبائر ، و أشد الموبقات ، وأعظم الظلم ، لأنه جحود للرب ، وإهدار للعقل ، وإمعان في كفر النعم والمنعم ، واستحباب للعمى والضلال المبين .

وتأمل قوله ﷺ وهو يحذر اصحابه من الشرك بكل أنواعه ، وإن كان قليلاً يستهين به بعض الناس (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) فقال ﷺ : (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شئاً) حيث دل ذكر تنكير كلمة (شيئاً) أي شركاً أيّاً ما كان . ولا أقل من هذه الكلمة في اللغة .

وهناك ألوان الأثام تعد ألواناً من الشرك الخفي ، فهي أشبه بأبواب قد يؤدي دخولها إلى بلوغ حمى الإشراك بالله ، وقد أشارت طائفة من الأحاديث إلى هذه الآثام ، مثل قوله ﷺ : (الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل) يريد الرياء . وقوله : (من حلف بغير الله فقد أشرك) حيث جعل ما يحلف به محلوفاً به كاسم الله تعالى الذي يكون به الحلف ، وقوله : (التطير شرك ، ولكن الله يذهبه بالتوكل) .

هذا ، وإن الشرك الأكبر الذي كان سائداً في قديم العصور من عبادة للشمس والقمر والشجر والحجر وغيرها قد انتهى تقريباً ، أو لم يعد له شأن يذكر ، ولكن هناك أنواع من الشرك قد جدّت في أيامنا هذه كثيرة لا يأتي عليها حصر ، منها عبادة الأهواء والرغبات والشهوات وعبادة الجاه والسلطان والمال والنساء ، والرغبات وعبادة الطواغيت الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ومتابعة الضعفاء والسفهاء لهم خوفاً وطمعاً ، وعدم إنكار العلماء عليهم لا بالفعل ولا بالقول ولا بالقلب !! كل هذا وأمثاله شرك نعوذ بالله منه . . .

ثم يتدرج الحديث الشريف في ذكر هذه الموبقات التي توقع من يقترب منها في الهلاك والضلال المبين . فذكر عليه الصلاة والسلام (السحر) وكلمة السحر تطلق عند العرب على كل ما لطف مأخذه ودق وخفي ، يقال سحرت فلاناً وسحرته إذا خدعته واستملته ، وكل من استمال شيئاً فقد سحره ، ومنه سحر العيون وقول الرسول ﷺ : (إن من البيان لسحرا) .

وأصل المادة السَّحْر والسُّحْر بمعنى طرف الحلقوم أو الرئة لأنهما باطنان خفيان فأخذ من اسمها السحر لدقة مسلكه ، وخفاء سببه على أكثر النـاس . ويطلـق على ضرب من التخييل لا حقيقة له تخدع به العيون حتى ترى ما ليس واقعـاً واقعـاً . . كالذي يفعله المشعوذ يصرف به الأبصار عما يعمله بخفة يده وسرعة حركته والى ذلك الإشارة بقوله : (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) وقد يستعان على ذلك باستخدام خواص الأشياء وطبائعها التي لا يعرفها العامة كخاصية جذب المغنطيس للحـديد ، فهذا الضرب إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة علمية خفية ، يجهلهـا أكثـر النـاس ، فيسمونها سحراً كالذي حكاه المؤ رخون عن سحرة فرعون أنهم استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصي بصورة الحيات والثعابين ، حتى خيل الى الناس أنها تسعـى وقال بعض العلماء إنه يطلق على ضرب ثالث يحصل بمعونة الشياطين ، والتقرب إليهـم بالمعاصي يؤ ثر في القلوب بنحو الحب والبغض ، وفي الأجسام ينحو الألم والسقم ، وهذا الضرب يحتاج إلى برهان عملي .

قال القرطبي : السحر حيل صناعية يتوصل إليها باكتساب ، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس ، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته وأكثرها تخييلات بغير حقيقة ، وابهامات بغير ثبوت ، فيعظم عند من لا يعرف ذلك كما قال تعالى عن سحرة فرعون: (وجاءوا بسحـر عظيم) مع أن حبالهـم وعصيهـم لم تخرج عـن كونهـا حبالاً وعصيـاً ، ثم قـال : والحق إن لبعـض أصناف السحـر تأثيراً في القلـوب كالحـب والبغض وإلقاء الخير والشر في الابدان بالألم والسقم . وإنما المنكور أن الجماد ينقلب حيوناً أو عكسه بسحر الساحر ونحو ذلك . والمراد به في الآية الضربان الأخيران . أما الأول فإنه السحر الخطير ، والحوب الكبير ، والوزر العظيم ، لأن فيه تلبيساً وتعمية وستراً للحقائق ، ووضع غشاء على الأبصار ، وإضلالاً للعامة وزلزالاً لعقيدتهم في ترتيب المسببـات على أسبابهـا ، والنتائـج على مقدماتهـا ، فإن كان من سبـب الاتصـال بالشياطين ، والتقرب إليهم بالعصيان ، كانت تلك أضراراً أخرى ، وإن كان منه ما يؤ ثر في القلوب بالحـب والبغض وفي الأجسـام بالصحـة والسقـم كان أشـد فحشـاً وأعظم . .

وقد اتفق العلماء على حرمة تعلم السحر وتعليمه وتعاطيه ، وقالوا : إن كان فيه

قول أو فعل يقتضي الكفر كان كفراً ، وقال مالك وأحمد وجماعة من الصحابة والتابعين : تعاطي السحر كفر يوجب القتل . بدليل قوله تعالى : (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) ، ولعل الكفر يكون حقيقة إذا قارف الانسان السحر واستحله . وإن كان لمجرد الإحاطة به ، والوقوف عليه وأمن العمل به ، ولم يكن في سبيله اقتراف جريمة لم يتجه إليه التحريم ، كمن يتعرف الأديان الباطلة وطرق العبادة فيها لا يأثم بذلك ، ولا يخرج من حظيرة الملة ، بل له ثواب إن أراد النهي عنه ، والتحذير منه . .

والكبيرة المهلكة الثالثة هي : (قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق) .

والعبارة هنا منتقاة تهدف الى المقصود في أخصر لفظ وأوفاه . فقتل النفس المحرمة ، وإزهاق الآمنة البريئة ، وإراقة الدماء الطاهرة الذكية ، تلك جريمة ترفع الأمن ، وتنشر الخوف ، وتفتك بالأمة ، وتقطع روابط الإخاء بينها ، فإزهاق روح الإنسان التي حرم الله قتله جريمة عظيمة ، لأن النفس محترمة فالرسول يقول : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه) .

والقتل هو أول جريمة ارتكبت في تاريخ البشرية ، وهي أشنع جريمة تثير العداوة والحقد ، وتهلك الحرث والنسل ، وتفتح الباب لسلسلة من الجرائم والآثام ، ولذلك تهدد القرآن الكريم القاتل فقال : (ومن يقتل مؤ مناً متعمداً فجزاؤ ه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) .

وتأمل هذه الدقة المتناهية في قولهﷺ هنا (إلا بالحق) لأنه إذا قام على النفس حق يبيح قتلها أو يستوجبه فإن قتلها لا يعد جريمة ، كمن يبغي علينا ويحاربنا ويبدأ قتالنا ، وكالقاتل لغيره ، فإنه يقتل قصاصاً ، لأن الله تعالى يقول : (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) .

فالنفس الانسانية محترمة إلا إن كانت نفساً شريرة ، مجرمة مفسدة ، فإن دواءها إراحة المجتمع منها ، فالقاتل يقتل ، قالﷺ : (لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) . ففي قوله (إلا بالحق) إشارة إلى أن هناك حالات يصبح فيها قتل النفس أمراً مشروعاً ، فيكون قتلها حينئذ بالحق ، وقد أشارت السنة إلى هذه الحالات ـ كما ذكرنا ـ

والكبيرة المهلكة الرابعة هي : « أكل الربا » :

والربا في اللغة : الزيادة مطلقاً ، يقال ربا يربو ربواً إذا زاد ونما . . وفي اصطلاح الفقهاء : الزيادة على رأس المال من وجه خاص . . والربا المعروف في الجاهلية أن يقول الدائن لمدينه إذا حل الأجل : إما أن تعطى وإما أن تربى ، والربا في الشريعة هو زيادة تشترط عند التعاقد على القرض ، فيشترط المقرض أن يرد إليه المقترض رأس المال وفوقه زيادة على الربا ، وقد عرفه ابن الأثير بأنه الزيادة على أصل المال من غير عقد تبايع .

وأكل الربا : هو أخذه والرضى به . . وهو ظلم للإنسان ، ووسيلة خبيثة لأكل أموال الناس بالباطل ، واستغلال القوي للضعيف ، وتحكم الغني في المحتاج .

ولذلك روى أن الربا لم يحل في أي شريعة من الشرائع الإلهية ، ولم يؤذن الله تعالى في القرآن عاصياً بالحرب سواه ، فقد جاء في القرآن عن الربا قوله : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخطبه الشيطان من المس) ، وقوله (يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم) ، وقوله (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) .

ومن هنا نرى مدى تأثر اسلوب الحديث النبوي بأسلوب القرآن الكريم ، ولا عجب فهو تلميذ القرآن وربيبه ، وكان خلقه القرآن ، فقد صور بأسلوبه الرائع الذي يأخذ أموال الناس بالباطل أضعافاً مضاعفة في صورة منفرة تشمئز منها النفس الطيبة ، فآكل الربا إنما يدخل في جوفه ناراً تتظلى ، تقطع أمعاءه ، جزاء وفاقاً لأنه سمح لنفسه الخبيثة أن تأكل لقمة الفقير والمعسر وامتص دمه ، وحرق أعصابه فهل يستساغ أن يأخذ القوي ما بيد الفقير ليزداد الغني غنى ويزداد الفقير فقراً وبؤساً في الوقت الذي كان من المنتظر ان يمد له يد العون والمساعدة ويقيل عثرته ويجبر كسره .

وما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المحذرة من تعاطي الربا بكل أنواعه . جاء في حديث الإسراء : ان النبي ﷺ رأى رجلاً يسبح في نهر دم ، وكلما جاء ليخرج منه استقبله رجل على شاطىء النهر ، وبين يديه حجارة يرجمه بحجر منها في فيه حتى يَرْجع حيث كان ، وسأل عنه فأخبر أنه آكل الربا) .

وفي حديث آخر يقولﷺ : (لما أسْرِي بي مررت بقوم بطونهم بين أيديهم كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم قد مالت بهم بطونهم مُنضدّين على سابلة آل فرعون ، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشياً ، قال : فينقلبون مثل الإبل المنهزمة ، لا يسمعون ولا يعقلون ، فإذا أحسّ بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم ، فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيؤذونهم مقبلين ومدبرين ، فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة قال ﷺ : فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) .

وقالﷺ : (الربا ثلاث وسبعون باباً ، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمّه) .

والكبيرة الخامسة هي : (أكل مال اليتيم) .

واليتيم من الانسان الذي فقد أباه . . ومن الحيوان ما فقد أمه ، أي اخذه وانتهابه أو إتلافه . . وأكل مال اليتيم اثم يدل على دناءة النفس وخسة الطبع وضياع الأخلاق وموت الضمير ، فإن آكل مال اليتيم يستغل صغره وضعفه ويسطو على ماله ، ولذلك قال الله : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) . وقوله تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) .

والكبيرة السادسة : هي (التولي يوم الزحف) : أي الفرار من ميدان الجهاد إذا التقى جيش الإيمان بجيش الكفر .

والتولي : الفرار والهرب وأصله اعطاؤك الغير ظهرك .

والزحف : المشي ، ويطلق الزحف على الجيش يزحف الى العدو ، أي يمشي الى عدوه في ثقل لكثرته ، يقال : زحف إليه زحفاً إذا مشى نحوه . . وأصل الزحف الدب على المقعدة أو الركبتين قليلاً قليلاً . والمراد به هنا زحف الجيوش الكثيرة المتراصة للقاء عدوهم ، كأنهم لكثرتهم وتجمعهم يزحفون . ومنه قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار) . .

وأصل معنى التولي يوم الزحف : الفرار من القتال وإعطاء الجندي ظهره

للعدو ؛ ومنه قوله تعالى : (وَمَنْ يولِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير) . ولا شك أن الفرار من ميدان الجهاد رذيلة شنيعة وسيئة بالغة . فالجندي في ميدان القتال إذا فر من وجه العدو وولاه ظهره ، فقد تولى يوم الزحف .

والقادر على أن ينتظم في سلك الجنود ويقف في وجه العدو مع المقاتلين إذا جبن ولم يتقدم ، فقد تولى يوم الزحف . وكل من استطاع أن يساهم بمجهود لمؤازرة الجيوش الزاحفة ومعاونتهم لينتصروا على عدوهم ، ولم يقم بما يستطيعه ، فهو في حكم من تولى يوم الزحف ، لأنه أعرض عن القيام بواجب فيه معونة للجيوش على القتال . . وكل من باشر سبباً من أسباب النصر ، أو مهد وسيلة من وسائله ، فهو جندي مجاهد ، وكل من قصر في واجب في ميدان القتال أو خارجه فهو متولٍ ومعرض يوم الزحف . . .

وتأمل تلك الصورة المنفرة التي ترسمها ألفاظ هذا الحديث الشريف ، حيث صورت الفار من ميدان الشرف والجهاد في صورة من يولي دبره للأعداء ، وفي ذلك من الحقارة والمهانة ما يبعث على الاشمئزاز ويثير في النفس عوامل المروءة والنخوة والشهامة . لأن تلك الذلة لا يقبلها مسلم مهما كان .

وخاتمة السبع المهلكات هي : (قذف المحصنات المؤمنات الغافلات) .

والأصل في القذف هو الرمي بشيء ، ثم استعمل في معنى الإتهام حتى غلب عليه . والمحصنات هن النساء العفيفات الطاهرات . والإحصان في الأصل هو المنع ، والحصان المرأة العفيفة .

ويقول ابن الأثير : إن المرأة تكون محصنة بالاسلام والعفاف والتزوج ولكن المراد بالمحصنات هنا العفيفات اللاتي أحصن نفوسهن من الخنا : مأخوذ من الحصن وهو المكان المنيع إذ نفوسهن في حصن العفاف .

والغافلات : أي الغوافل عما يرمي به من الزنا ، أي لا يفكرن في مثل هذه الجرائم لاستقامة سلوكهن .

وما جعل الله لعنته و غضبه على أحد ، كما جعلها على القاذف ومن يرمي المحصنات الغافلات بغير ما فيهن ، بمثل هذه التهمة الخبيثة الشنيعة . . وكيف لا

يكون قذف المحصنات المؤمنات جريمة منكرة ، وإفكاً إداً أن تعمد إلى امرأة متمتعة بالحصانة ، بعيدة عن الريبة ، لا تخطر بقلبها الفاحشة ، ولا تتحدث بها نفسها الطيبة ، تعمد الى هذه الحرة العفيفة ، التي ملىء قلبها بالايمان ، فلم يكن فيه موضع لنية خبيثة ؟

ويجسم التعبير جريمة هؤلاء الملعونين الذين يرمون المحصنات ويبشعها ، وهو يصورهن غافلات غارات ، غير آخذات حذرهن من سهامه المسمومة ، لأنهن لم يأتين شيئاً يحذرونه ، فيطلق عليهن قذيفته الخبيثة التي تدمر كيانهن وتقضي عليهن . .

وقد اختارﷺ الالفاظ الدقيقة المصورة لمعناها أبدع تصوير إذ عبر عن الاتهام بالزنا بكلمة (القذف) ، وما أحسن التعبير بصيغة (الرمي) : فان الناطق بهذه الكلمة يقذفها لا يدري من أصابت في طريقها : من محصنة وأبيها وأخيها ، وزوجها وبنيها ، وعشيرتها التي تؤويها ، كل أولئك قد نالهم من قذيفته الطائشة ، وهو ناعم البال لا يدري من آلام اولئك شيئاً .

ثم التعبير ببقية الصفات أنسب ما يوافق هذا المقام : (المحصنات الغافلات المؤمنات) ، فالمحصنات : أي المصونات التي بولغ في صونها كأنها جعل عليها حصن منيع . والغافلات : أي المنصرفات الذهن عن التفكير في هذه الفاحشة ، فلا تتجه إليها نفس منهن بتفكير فضلا عن التوجه إليها برغبة ، بل الوقوع فيها والمقارفة لها .

والمؤمنات : معناه أولئك اللاتي آمنّ بما أنزل على رسول الله من أحكام واذعن لها بالطاعة ، والتزمن حدود الايمان ، فهنّ أبعد إنسان عن أن ينال منهن هذا المنال الفاحش .

وبهذا يتبين لك سر تقديم المحصنات الغافلات على صيغة المؤمنات مع ان الايمان أصل الفضائل بجملتها ، ذاك أن استنكار الرمي مع صفتي التحصن وغفلة النفس عن تلك السيئة أقوى منه مع وصف الايمان ، وكون وصف الايمان أصلاً على الإطلاق مستحقاً للتقديم بالذات لا يمنع أن يكون لغيره تقدم خاص في موضع من المواضع .

وتدرك مدى تأثر اسلوب الحديث بالقرآن الكريم حين تقرأ قوله تعالى (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) .

وقوله في عقوبة القذف : (والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون) .

فقد أخذ الرسول عليه الصلاة والسلام نفس الصفات القرآنية بنصها صريحة واضحة فقال (قذف المحصنات المؤمنات الغافلات) وقال الله تعالى (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) فهي الصفات الثلاث بعينها . والرمي هو القذف تشبيهاً له بالقذيفة التي تنطلق فتصيب مقتلاً وتمزق اللحم وتهشم العظم . بل إن اتهام اولئك الموصفات بتلك الصفات بالفاحشة أشد إيلاماً من الرمي بالسهام . فالسهام الذي يطلقه العدو على جسم إنسان إنما يمزق اللحم ويكسر العظم ، وربما يزهق الروح ، وربما تعالج جراحات السنان ، ولكن جراحات اللسان لا التئام بها .

وصدق القائل : جراحات السنان لها التئام : ولا يلتام ما جرح اللسان

فإن الذي يلقي هذه الكلمة الخبيثة من فمه يمزق بها أعراض الطيبات ويجر عليهن من سوء السمعة ما يفقدون به اعتبارهن في المجمتع ، فيقضي عليهن القضاء النهائي الذي لا يمكن علاجه . . وسمعة المرأة هي الزاد الروحى الذي لا يغني عنه بالنسبة لها شيء في هذه الدنيا .

ويتشعب من جريمة قذف هذا الصنف الطيب عدة جرائم منها اشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، لأنه إذا اتهم بالزنا الأبرياء الفضلاء سهل على من ليس لهم مثل اعتبارهم ان يرتكبوا ما يرمي هؤلاء ، فقال تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

وجاء في حديث رسول الله ﷺ مشنعاً على هذه الجريمة قوله : (قذف المحصنة يهدم عمل مئة سنة) ، وهو قول يشير الى التهديد والوعيد الشديد ليحذر كل مسلم من هذا الافتراء الخبيث .

وبعد : فهذا الحديث النبوي الجليل آية من آيات البلاغة النبوية الساحرة التي جمعت اموراً متباعدة في حيز واحد ، فتراها متقاربة متلاصقة يمسك بعضها بحجز بعض ، وكالسلسلة المتصلة الحلقات ، وهو فوق كل هذا توجيه نبوى كريم ، فيه صلاح النفس والمجتمع ، بأخصر طريق ، وايسره ، مما يدل على مدى خبرته بالنفس البشرية بوصف أمراضها وطرق الوقاية من هذه الأمراض وعلاجها ؟

الحديث الرابع
آداب الطريق

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إِيَّاكُمْ والجُلُوسَ على الطُّرُقات ، فقالوا : يا رسول الله ما لنا بُدٌّ إنَّمَا هي مجالسُنا نَتَحَدَّثُ فيها . قال : فإذا أَبَيْتُمْ إلا المجالِسَ فأَعْطُوا الطَّرِيقَ حقَّها . قالوا : وما حَقُّ الطريقِ ؟ قال : غَضُّ البصر ، وكفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلام ، والأَمْرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عَنِ المنكر) رواه البخاري ومسلم وأبو داود .

المعانـي والتصويـر

اعتاد الناس من قديم ـ سواء في ذلك منهم أهل المدن ، وأهل القرى ـ أن يجلسوا على جوانب الطرقات ، في المقاهي والحوانيت ، وفي الأبنية أمام الدور ، وبجوارها وبالقرب منها ، وفوق المساطب المقامة في أفواه الدّروب والأزقة وما أشبهها ؛ وهذه الطرق ليست ملكاً لشخص دون شخص ، بل هي مجالس وأندية يحضرها الخاصة والعامة ، ويختلط الحابل فيها بالنابل .

ونحن نعلم ان الطرقات إنما جُعلت ليسلكها الناس في ذهابهم وإيابهم وتردُّدهم لقضاء مصالحهم وسائر اعمالهم ، فلم تكن الغاية منها ان تكون مجالس يجلس فيها الناس للحديث أو غيره ، وحينئذ يكون اتخاذها لغير السير والمرور فيها استعمالاً لها في غير المنافع الاصلية المقصودة من إنشائها ، بل قد يجر اتخاذها مجالس إلى أضرار ومفاسد كثيرة .

ومن أجل هذا نهى المربي الاعظم صلوات الله وسلامه عليه صحبه الكرام عن الجلوس فيها ، حسماً لمادة الشر ، وسداً لأبواب الفساد فقال محذراً (إياكم والجلوس على الطرقات) وفي رواية (بالطرقات) أو (في الطرقات) ، والمعنى واحد في هذه الروايات جميعها ، فليس من شأن المسلم أن يعوق الناس عن أعمالهم ، أو يسبب المتاعب لهم ، او يقتل وقته في الجلوس على الطرقات بلا ثمرة أو موجب ، بل شأنه أن ينصرف الى عمله وواجبه .

قال الشوكاني : (والعلة في التحذير من الجلوس على الطرقات ما فيه من التعرض للفتنة بالنظر إلى ما يحرم النظر اليه) .

وليست فتنة النساء وحدها ـ كما قال الشوكاني ـ هي المقصود من التحذير بل خشية التعرض لحقوق الله والمسلمين ، والتعرض لرؤ ية المناكير وتعطيل المعارف ، ووجوب الأمر والنهي عن ذلك ، والتعرض للمعصية بالتقصير والترك . . ولهذا نهى الحديث الشريف عن الجلوس في الطرق ، وأشار بذكر الآداب التي أوردها إلى معنى علة النهي . .

وتأمل روعة الاستهلال وبراعته في هذه الجملة السامية التي صدّر بها رسول اللهﷺ حديثه التربوي الحكيم : (إياكم والجلوس على الطرقات) . فكلمة (إياكم) كلمة تستعمل للتحذير . والطرقات . جمع طرق . وهذه واحدها طريق ، فالطرقات جمع الجمع .

وقد بدأ الحديث بهذا الامر الموجز (إياكم والجلوس . .) وهو أمر تعليمي خارج عن صيغته الاصلية إلى الارشاد ، يهدف الى إثارة الانتباه وإيقاظ الشعور . . ولما كان هذا التحذير للارشاد والتعليم ، لا للوجوب والإلزام ، راجع الصحابة رسول اللهﷺ فقالوا : (يا رسول الله ، ما لنا بد من مجالسنا) ، أي يصعب علينا ان نتجنب الجلوس فيها احياناً ، لكي نتحادث فيما نحتاج إليه .

فلما ندبهم الشارع إلى ترك الجلوس حسماً للمادة ، وذكروا ضرورتهم إليه ، لما فيه من المصالح : من تعاهد بعضهم بعضاً ، ومذاكرتهم في أمور الدين ، وشئون الدنيا ، وترويح النفوس بالمحادثة في المباح . . الخ .

وكأنهم فهموا ـ وهم العرب الاقحاح ـ أن نهي النبي عليه الصلاة والسلام لهم للتنزيه ، ولا يراد به التحريم ، لأنهم لم يعهدوا من الرسول عليه الصلاة والسلام تحريم نافع ، ولا إباحة ضار ، أو أن النهي لمعنى متصل بالمجالس ، لا لنفسها وذاتها ، وقد يكون في إمكانهم مجانبة المعنى الذي من أجله كان النهي ولذلك راجعوا الرسولﷺ ذاكرين انها مجالس محادثة ومذاكرة ، ومؤ انسة ومجاملة فلِمَ ينهون عنها ؟ ولو علموا ان النهي عزمة من العزمات ما راجعوه ولكانوا أول من يمتثل ، كما هو شأنهم دائماً ، ينفذون بمجرد الاشارة فما بالك بصريح العبارة ؟

ولقد أجابهم المربي الاعظمﷺ بما يدل على أن النهي ليس لذات المجالس وإنما هو من أجل حقوق الطريق التي يتعرض لها الجالس ، وقد يقصر فيها فيبؤ بإثمها .

وتأمل أدب الحوار بين الاستاذ والمربي وتلاميذه (إياكم والجلوس على الطرقات) فالنبي يرشد المؤمنين إلى عدم اتخاذها مجالس لهم ، فقالوا (ما لنا بد من مجالسنا) .

والبد : المناص والمهرب والعوض . .

فاعتذر المؤمنون إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه . فبيّنوا له أنهم لم يقصدوا بجلوسهم في الطرقات شرّاً ولا أمراً منكراً ، بل انهم قد اضطرهم إلى ذلك عدم وجود مجالس أخرى يجتمعون فيها للحديث في شئونهم ومهام أمورهم ، فلهذا لم يكن لهم غنى عن هذه المجالس .

ولما علم عليه الصلاة والسلام صحة هذا العذر قبله منهم ، ولكنه لم يتركهم يجلسون دون ان يرشدهم الى ما يفعلونه ، وما يتّقونه أثناء جلوسهم ، فبين لهم ان للطريق حقوقاً يؤدونها وليس من شأن المؤمنين الإخلال بها ولا التفريط فيها .

ولذا فقد قال عليه الصلاة والسلام بعد أن بين خطورة أمر الجلوس على الطرقات ، وبعد ان تأكد من حاجتهم الماسة للجلوس فيها (فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها) وفي رواية (حقه) .

وعلمهم من حقوق الطريق خمسة حقوق كأمثلة لآداب الطريق ، وهي ليست على سبيل الحصر بل على سبيل المثال . .

وهنا يحسن أن نتوقف أمام هذا الحديث النبوي الشريف متأملين طريقته عليه الصلاة والسلام التربوية التي تعتمد على طريقة الحوار وأسلوب السؤال والجواب ، حيث يجعل المتلقي في حالة تيقظ وانتباه تام ، فكل الملكات الشعورية وأجهزة الاستقبال جاهزة لتسجيل كل كلمة من كلمات المربي العظيم .

وفوق ذلك فإن هذا الحوار الحي يعيد الى أذهاننا صورة ذلك المشهد التعلمي عبر الأزمان الطويلة ، وكأننا نرى ونسمع ما يدور بين رسول الله وصحابته ، فالصورة ماثلة شاخصة مجسمة تراها العين ، وتسمعها الاذن ، فنحياها ، ونعيش في ظلها ،

ونقتبس من نورها ، ونسير على هديها كما سمعها وسار عليها الصحابة الكرام .

وما أحوجنا اساتذة وطلاب علم الى الاقتداء بمنهج رسول الله التربوي التعليمي الذي يعتمد على خبرة واسعة بالنفس البشرية . فعلى المعلم أن يتسم بالتواضع ولين الجانب وسعة الصدر ورحابة الافق ، والشفقة بالمتعلم والحرص على تعليمه وتكريمه .

والمتعلم يمتاز بالأدب الجم ، وحسن الاستماع ، وتوقير معلمه ، والحرص على حسن الاستفادة ، والإستفسار عما لا يفهم في أدب .

وتأمل كيف جاءت إجابة المعلم هادئة متمشية مع طبيعة نفس المتعلم دون ان تحملها من الأمر ما لا تطيق . فقد أراد لهم في أول الحديث ترك تلك المجالس سداً لأبواب الفساد ، ولئن كان في ذلك شيء من المصالح ، ولكن لما اعتذروا ، ساروا معهم ورضي لهم الجلوس ولكنه أدبهم بما يكفل سلامتهم من الوقوع في محذورات الجلوس ، فقال (فإذا أبيتم إلا المجالس) ، أي وإن أبى أحد إلا القعود فلا حرج عليه إذا عرف حق الطريق وقام به . فيا لسعادتهم فقد استجاب رسول الله لرغبتهم وسمح لهم بالجلوس في مجالسهم ، وهم مهيأون لتلقي الآداب التي يشرعها لهم نظير تلك الرخصة (فأعطوا الطريق حقه) فسألوه عن حق الطريق ليعرفوه فيلزموه (وما حق الطريق يا رسول الله ؟) فأجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن حق الطريق هو كما في الحديث خمسة أشياء : (غض البصر ، ورد السلام ، وكف الاذى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر) وأضافت الرواية الثانية حقين آخرين هما : إغاثة الملهوف ، وهداية الضال ، وزاد أبو داود في حديث أبي هريرة : وإرشاد السبيل ، وتشميت العاطس إذا حمد . وزاد الطبراني من حديث سهل بن حنيف (وذكر الله كثيراً) وزاد أيضاً من حديث وحشي بن حرب (واهدوا الأغبياء ، وأعينوا المظلوم) وجاءت زيادة في حديث أبي طلحة هي (وحسن الكلام) وزاد البزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (وأعينوا على الحمولة) فيتكون عندنا من الروايات مجموعة من آداب الطريق هي : غض البصر ، وكف الأذى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإرشاد السبيل ، وتشميت العاطس إذا حمد ، والإعانة على الحمولة ، وذكر الله كثيراً ، وهداية الاغبياء ، وإعانة المظلوم ، وحسن الكلام ، وإغاثة الملهوف ، وهداية الضال . . الخ .

فقد ذكر الحديث الذي معنا من حقوق الطريق خمسة أمور ، وهذه الأمور التي

جاءت متفرقة في أحاديث أخرى نحو تسعة ، فيكون المجموع اربعة عشر حقاً ؛ وما عساه يوجد غير ذلك ، فيمكن إرجاعه الى واحد منها .

وأول ما يشد انتباهنا في هذا الحديث وغيره من احاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام دقته المتناهية في اختيار الكلمات ، وطريقة تركيبها وسكبها في الجمل والعبارات .

فقد قال (اعطوا الطريق حقه) وأصل (الحق) المطابقة والموافقة لمطابقة رِجْل الباب في حقِّه لدورانه على استقامة والحق هو كل موجود ثابت متحقق أو سيوجد لا محالة ، ويقال للكلام الصدق حق لأن وقوعه متحقق لا تردد فيه ، وكذا الحق المستحق على الغير إذا كانَ لا تردد فيه ، والمراد هنا ما يستحقه الطريق مما جعله محتماً عليهم . . وحق الطريق على الجالس معناه أنه متحقق لا محالة .

وأول حق من حقوق الطريق الذي ذكره هذا الحديث هو : (غض البصر) ، أي حجزه عن التطلع إلى الحرمات ، والتمعن فيما لا يليق التمعن فيه ، أي صرف النظر إلى ما لا يحل النظر إليه من كل ما يترتب عليه الفتنة وفساد الأخلاق وانتهاك الحرمات والآداب .

وأصل الغضّ : النقصان من الطرف والصوت ، وما في الإناء يقال غضّ وأغضّ ، قال تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) وقوله تعالى : (وأغضض من صوتك) وقوله : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله . . .) وقال الشاعر :

فِغض الطرف إنك من نمير .

فهذا القول على سبيل التهكم ، وقولك : غضضت السِّقاء ، نقصت مما فيه .

والغضُّ : الطريُّ الذي لم يطل مكثه ، فقوله تعالى : (يغضون أصواتهم) أي يخفضون اصواتهم عنده اذا تكلموا إجلالاً له . وأي شيء تنوء به كواهل الشيوخ المتهوسين ، والشبيبة المتهتكين ، مثل كف البصر عن الحرمات ، وأبواب البيوت ونوافذها المفتحة والنساء المارات الغاديات الرائحات في حاجاتهن ، فإنهم ينظرون إلى كل ذلك نظر السباع الضارية إلى الفريسة ، وما العشق والغزل والفتنة والغرام القاتل إلا تبعاً لنظرات خبيثة ، هن والله سهام مسمومة من سهام إبليس المسددة إلى أفئدة

الخارجين على قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون) . وقال ﷺ (إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه .

والحق الثاني هو : (كف الأذى) أي منع الأذى عن الناس ، سواء أكان هذا الأذى من الجالس ، أوكان هناك أذى ويستطيع الجالس ان يزيله .

وكلمة (الكف) تعني « المنع » مطلقاً فهي كلمة جامعة تشمل العديد من المعاني ، وتتسع إلى الكثير من الأمور مما كان في زمانه ﷺ ومما هو حادث في زماننا وإلى أن تقوم الساعة .

وكذلك كلمة (الأذى) فهي تشمل كل ما يؤذي ويضر بالمصلحة العامة من الأقوال والأفعال .

فمن المعاني التي تفهم من هذه الكلمة الجامعة (كف الأذى) صرف الأذى عن المارة بألا يجلس حيث يضيق عليهم الطريق ، أو على باب منزل من يتأذى بجلوسه عليه ، أو حيث يكشف من أحواله ما يكرهه وما يريد التستر به ، أو حيث يمنع النساء ونحوهن من الخروج في أعمالهن ، بسبب قعوده في طريقهن ، أو وضع اشواك تضر بالسابلة . . إلى غير ذلك من الافعال .

أما الأقوال ، فيجب ألا يتعرض الجالس لأحد بما يكره ، ولا يذكر احداً من الناس إلا بخير ، ولا يهزأ بالمارة ، ولا يسخر براكب أو ماشي ، ولا يشر بيديه أو عينيه إلى رجل أو امرأة بسوء ، ولا يضحك من شيخ أحدب وعجوز شوهاء ، ولا يفعل ما يفعل الارذال السفهاء ، من قول فاحش ونقد لاذع ، وتهكم مزري ، فهذا طويل عملاق ، وهذا قصير قزم ، وهذا سمين مترجرج ، عبثت به الراحة والترف ، وهذا نحيف برته الهموم والاحزان ، وأكل لحمه ودمه البخل والتقتير على نفسه . . الخ .

ويحتمل التعبير ان يكون المراد بكف الأذى إماطته وإزالته عن الطريق إن وجد من غيرك ، فلا يكفي ان تمنع نفسك من إيذاء الناس بالقول أو الفعل ، بل تعمل على إزالة كل أذى ، وتنكر كل منكر سواء أكان هذا الأذى من الجالس أو كان هناك أذى ويستطيع الجالس أن يزيله ، ولذلك قال الرسول : (لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة ، في شجرة قطعها عن ظهر الطريق ، كانت تؤذي المسلمين) وقال أبو هريرة

للنبي ﷺ : علمني شيئاً انتفع به ، فقال (اعزل الأذى عن طريق المسلمين) . وروى الترمذي بسند حسن الحديث التالي : (وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق ، لك صدقة) .

فتأمل كم من المعاني الغزيرة التي يمكن استنباطها من هذه الكلمة الجامعة التي اعطاها الله تعالى لرسوله الكريم عليه افضل الصلاة وأزكى التسليم .

والحق الثالث : « رد السلام » ، فإن من آداب الإسلام أن يسلم المار على الجالس لأن الجالس في الطريق قاعد وسيمر عليه اخوانه في الإسلام فيحييونه بتحية الإسلام التي سنّها سيد الأنام ، وهنا يجب عليه ان يرد هذا السلام . والله تعالى يقول : (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا) . .

وإذا كان إلقاء السلام سنة فإن الرد عليه واجب ، والسلام من المار تحية وتوقير وتأمين منه للجالس ، والرد من الجالس إجابة منه للمار ومعاملة له بمثل ما عمل ، وحينئذ تتوثق بين المار والجالس صلةُ الاخوة الدينية وتقوى بينهما الرابطة الإسلامية ، لأن افشاء السلام من جهة الإلقاء وجهة الرد هو شعار الإسلام دين السلام ، ولذلك قال الرسول ﷺ : (والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : افشوا السلام بينكم) .

وإفشاء السلام هو إظهاره ونشره بين الناس ، لحصول المحبة وائتلاف الكلمة بين المتسالمين ، وذلك لأن كلمة السلام اذا وقعت في السمع ، نفذت إلى القلب الواعي ، وخلصت من النفور ، وساقته الى الإقبال على قائلها ، فينتج عن ذلك الألفة والمحبة .

واختلف في معنى السلام ، فقيل : معناه اسم الله ، أي كلاءة الله عليك وحفظه ، كما يقال : الله معك ومصاحبك ، وقيل معناه : إن الله مطلع عليك فيما تفعل ، وقيل : معناه ان اسم الله يذكر على الأعمال توقعاً لاجتماع معاني الخيرات فيها ، وانتفاء عوارض الفساد عنها . وقيل معناه السلامة ، أي السلامة ملازمة لك ، فكأن المسلم اعلم من سلّم عليه انه سالم وآمن ، وأنه لا خوف عليه منه .

والحق الرابع والخامس هو : (الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر) ، أي

ارشاد الناس الى كل أمر من أمور الخير والبر والعدل ، والتحبيب ، والتحريض عليه ، وهذا يستدعي ان يكون الأمر بالمعروف مؤتمراً به منفذاً له ، وإلا كان أمره ضعيف التأثير قليل الفائدة .

والأمر بالمعروف هو أن يطلب الجالس الى المار في الطريق ان يفعل الفعل المحمود النافع الذي يرضاه الله تعالى ويعرفه الفضلاء ذوو المروءات والتقوى ويحمدونه .

وأما المنكر الذميم فإنهم يجهلونه لأنه مرذول ممقوت وهم عنه مُبْعَدون . فمعنى النهي عن المنكر : هو التحذير من كل أمر مستنكر قبيح ، لا يرتضيه الدين والعقل ، وهذا النهي ايضاً يستدعي ان يكون الناهي عن المنكر منهياً عنه . والله تعالى يقول : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) .

هذه هي الحقوق والآداب التي أوجبها الحديث الذي معنا على من يجلس في الطريق ويتعرض لمسئولياته . . وتأتي بعد ذلك بقية الحقوق التي وردت في الروايات المتعددة للحديث ـ كما سبق أن ذكرنا ذلك ـ وهذه الحقوق مجتمعة ليست هي وحدها المطلوبة من الجالس على الطريق ، بل هناك العديد الذي لا يحصيه عد ، مما يستجد في كل زمان ومكان . فمن ذلك مثلاً مراعاة قائدي السيارات وغيرها من المركبات أن الطريق للجميع ، لا لفرد دون سواه ، فعلى المسلم أن يتجنب السرعة الزائدة في السير ، والبطء المتعب فيه ايضاً ، وينبغي التزام التوسط والاعتدال . ومن الآداب العامة للطريق تجنب الإصطدام بالمارة ، أو وطء نعالهم وأقدامهم ، وتجنب التبرج من النساء ، والتزام الحشمة ، وتجنب تعطيل الناس في الطريق بالاستيقاف وتوجيه الاسئلة وإطالة الحديث . ومن المنكرات التي نراها ونسمعها في الطرق اليوم ، وضع الاسطوانات ورفع الأصوات بالغناء وغيره ، وترك مياه الميازب والأمطار والاوحال والفضلات في الطريق من غير كسح الطريق . . الخ .

وبعد : فما أروع هدى المصطفى عليه الصلاة والسلام وأعظم ارشاده وتوجيهه ، وما أبلغ أسلوبه وأحكمه في التعبير عن هذا التوجيه النبوي الحكيم ، الذي يبصرنا بآداب الطريق لنتحلى بها ونحرص عليها ، ولنرى كيف هذب الرسول الأمين ﷺ أمته في كل ناحية من نواحي التأديب والتربية ، حتى نؤمن بقوله الحق

ومنطقه الصدق حين قال : (إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) .

فهذه الحقوق والآداب التي أوجبها الاسلام على من يجلس في الطريق ويتعرض لمسئولياته ، فمن قام بها وأداها على الوجه الأكمل ، فقد سلم ونجا من آفات الطريق وآثامها ، ومن حاد عنها أو قصر فيها ، فلا شك انه سيلقي حتماً النتائج الدينية والدينوية التي تترتب على ذلك .

ونستدل بهذا الحديث على عظمة الاسلوب النبوي الحكيم في الأخذ بمجامع النفس البشرية ومسايرتها إلى أبعد الحدود ، دون التفريط في حق من حقوق الله أو حقوق العباد .

فرسول الله ﷺ المربي الأعظم لما نهى صحابته عن الجلوس في الطرقات سداً للذريعة وحسماً للمادة ، فلما أبوا إلا الجلوس بينّ لهم مواضع الخطر فإن تجنبوها فلا عليهم إن جلسوا .

ومن يحاول جاهداً تطبيق هذه الآداب العامة الشاملة التي لا تكاد تحصى يجد مشقة بالغة في ذلك ، وكأن النتيجة الحتمية ان يقلع عن الجلوس تجنباً للوقوع في محذور من المحذورات التي نهى عنها رسول الله ، فيتصل أول الحديث الكريم بآخره ، ويكون كالمقدمة والنتيجة فصدر الحديث تحذير من الجلوس في الطرقات (إياكم والجلوس على الطرقات) والمفهوم الضمني لمجموعة الأوامر والنواهي النبوية لآداب الطريق التي شرعها الرسول الكريم هي حذر وخطر الجلوس في الطرقات .

وبعد : فهذا الحديث التربوي التعليمي الهادف يصور لك مدى حرص رسول الله ﷺ على إرشاد أمته وتهذيبها ، وما أعظمه من درس نبوي كريم يصلح لكل بيئة ولكل زمان ومكان .

وإن الألفاظ النبوية ، وطريقة سبكها وتركيبها لتدع المشهد الذي دار فيه الحوار بين رسول الله وصحابته يمثل امام أبصارنا حياً شاخصاً مجسماً ، فكأنك ترى وتسمع رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يرسل بكلماته الهادئة العميقة المؤثرة فتسري في نفوس وقلوب وعقول مستمعيه الأجلاء سريان النار في الهشيم . وكأننا نسمع رد أولئك الصحابة على هذا التحذير النبوي ، واعتذارهم عنه ، واستجابتهم لشروط الترخيص لهم بالجلوس على الطرقات ، ويظل صدى ذلك الحوار بين المربي العظيم وصحابته

يتردد عبر المسافات الشاسعة والأزمنة المتباعدة . وكأننا نسمع صوت رسول الله ﷺ وهو يتردد فينا اليوم قائلاً : أيها المسلم إن آنست في نفسك القيام بالواجبات ، فلا عليك أن تجلس في الطرقات على المقاهي والمتنزهات ، والأماكن العامة ، وأمام المساكن ، أو المتاجر ، أو في الشرفات ، تستنشق الهواء وتستدفىء بالشمس ، وإن خشيت عدوان نفسك عليك ومغالبتها لك ، وطغيان شهوتك على عقلك ، وشيطانك على ملكك فدعها داخل منزلك ، تسلم من المعاطب وتفز بطيب الرغائب ومن كل هذا ترى روعة بيان ، وعظمة في التعبير والتصوير ، وقدرة على التحليل النفسي ، وخبرة عميقة بأغوار النفس البشرية ، ودراية واسعة بالداء والدواء .

فما أعظم هديك ، وأبدع أسلوبك يا رسول الله .

الحديث الخامس
من خصال المؤمن

عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه أن النبيﷺ قال : (إنّ الله تعالى يحب العبدَ التَّقيَّ الغَنيَّ الخَفيَّ) رواه مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده .

المعاني والتصوير

في هذا الحديث النبوي الكريم يذكّر الرسول عليه الصلاة والسلام طائفة من صفات المؤمن ؛ وقد ذكر سعد بن أبي وقاص هذا الحديث في مناسبة هي أنه كان يباشر إبله ؛ فأقبل نحو ابنه عمر ، فلما رآه سعد قال : (أعوذ بالله من شر هذا الراكب) . فلما التقيا قال عمر لأبيه سعد : (أنزلت إبلك وغنمك ، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم) ؟! فضرب سعد في صدر ابنه وقال له : (اسكت ، سمعت رسول اللهﷺ يقول : (إن الله يحب العبد التقي الغني الخَفي) .

فقد وردت كلمة « يحب » في الحديث بصيغة المضارع . وفي ماضيه لغتان : حَبَّه من غير همز ، وأحبَّه ، والمضارع يحبه . . ثم اقتصروا على الفاعل من (أحَبَّ) فقالوا (محب) ولم يقولوا (حابٌّ) واقتصروا على اسم المفعول من (حبَّ) فقال محبوب ولم يقولوا (محُبٌّ) إلا قليلاً . . . وأعطوا الحب حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها مطابقة لشدة حركة مسماة وقوتها ، وأعطوا (الحِبّ) وهو المحبوب حركة الكسر لخفتها عن الضمة ، وخفة المحبوب وخفة ذكره على قلوبهم وألسنتهم من اعطائه حكم نظائره . ومعنى ذلك أن الله محب او ذو محبة ومن ذلك قوله تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبونه) فمحبة الله تعالى للعبد إنعام عليه ، ومحبة العبد له طلب الزلفى لديه ، وإسلام الوجه إليه ، والإخلاص له في السر والعلن ، فيلزم طاعته ويكف عن معاصيه ، ولا يرى في الوجود كله إلا الله ، ولا يخشى من أحد سواه ، ولا يؤثر عليه مالاً ولا ولداً) . .

وأما محبة الله تعالى لعبده فهي نعمة كبرى لا تدانيها نعمة أخرى . . وهي عبارة عن إرادة الفعل النافع للعبد في الدارين : من إكرامه واستعماله في طاعته ، وصونه عن

معصيته ، وتوفيقه ، وهدايته ، وتهيئة أسباب القرب له ، ولا أعظم من هذه المحبة المتبادلة بين الخالق والمخلوق ، فقد نوهت آيات القرآن الكريم بها في كثير من الآيات : (يحبهم ويحبونه) وقوله (رضي الله عنهم ورضوا عنه) وقوله (إن الله يحب الـذين يقاتلون في سبيله صفـاً) وقال سبحانه (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) . . . فإذن محبة الله للعبد هي تقريبه من نفسه سبحانه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه من كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه .

وفي الحديث الشريف ما يصور تلك المحبة وثمرتها فقد روى الطبراني في الكبير عن أمامة : (يقول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي : (ما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فأكون سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به ، فإذا دعاني أجبته ، وإذا سألني أعطيته ، وإن استنصرني نصرته ، وأحب ما تعبدني به النصح لي) .

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال : (من عادَى لي وليّاً فقد آذنتُه بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه) . فأخص علامات حب الله لعبـده ـ كما نرى ـ هي ان يتولى الله تعالى أمره : ظاهره وباطنه ، وسره وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه ، والمسدد لظاهره وباطنه ، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

وقد روى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوسي من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ (إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه ، وزاجراً من قلبه ، يأمره وينهاه) .

ومن علامات حب الله تعالى لعبده أن يضع له القبول والحب من أهل السماء وأهل الأرض ـ كما روى مسلم في صحيحه ـ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : (إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل ، فقال : إني أحب فلانـاً فأحبّـه ، قال فيحبـه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم قال ثم يوضع له القبول في الارض . وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض

فلاناً فأبغضه قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض) .

وشاهد ذلك من القرآن قوله تعالى ممتناً على موسى عليه السلام : (وألقيت عليك محبة مني) . .

فأنت ترى من هذا مدى دقة رسول الله ﷺ في اختيار كلماته الشريفة الجامعة للمعاني الكثيرة الغزيرة .

وأول صفة ذكرها هذا الحديث الذي معنا من خصال المؤمن الذي يستحق محبة الله وهي (العبودية) والعبودية هي تمام خضوع العابد للمعبود جل جلاله ، وفي هذا الخضوع الكامل كمال العز للإنسان ، لأن المذلة لله رفعة ، إذ أن هذه المذلة لا تجوز لغير الله ، فكأن الإنسان سيكون عزيزاً مع كل ما عداه ، ولذلك صح للشاعر ان يقول مناجياً ربه تبارك وتعالى :

وممـا زادنـي شرفـاً وتيهاً ... وكدت بأخمصي أطـأ الثريَّا
دخـولي تحـت قولك « يا عبادي » ... وإن صـيرت أحمـد لي نبيّاً

وكلمة (عبد) هي أشرف الكلمات وأكرمها ، فالله تعالى يصف أحب خلقه إليه ـ وهو محمد رسول الله ـ بصفة العبودية حيث يقول : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) ويقول : (وأنَّه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدا) .

والعبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنه غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال : (ألا تعبدوا إلا إيَّاه) .

والعبد يقال على أربعة أضرب : الأول : عَبْدٌ بحكم الشرع وهو الانسان الذي يصح بيعه وابتياعه (العبد بالعبد) . والثاني : عبد بالايجاد ، وذلك ليس إلا لله وإياه قصد (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) . والثالث : عبد بالعبادة والخدمة . والناس في هذا ضربان : عبد شكور (نزل الفرقان على عبده) (على عبده الكتاب) (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) . والضرب الثاني : عبد للدنيا وأعراضها وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها وإياه قصد النبي ﷺ بقوله : (تَعِسَ عبْدُ الدِّرهم ، تَعِسَ عبْدُ الدِّينار) .

وعلى هذا النحو يصح أن يقال : ليس كلُّ إنسان عبداً لله فإن العبد على هذا بمعنى العابد ، ولكن العبد أبلغ من العابد ، والناس كلهم عباد لله بل الأشياء كلها كذلك لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار ، وجمع العبد الـذي هوامُسْتَرقُ عبيد وقيل عِبدا ، وجمع العبدُ الذي هو العابد عباد ، فالعبيد الذي أضيف إلى الله أعم من العباد . ولا شك ان العبودية تقتضي من العبد أن يأتمر بكل ما امر الله ، وأن ينتهي عن كل ما نهى الله .

فتأمل روعه اختيار هذه الكلمة (العبد) وما تشتمل عليه من معان كريمة . . فالعبد : اسم المملوك من جنس العقلاء ، والمعهود هنا هو الإنسان ، ولو انثـى فان الناس عبيد الله .

أما الصفة الثانية من الصفات التـي ذكرهـا هذا الحـديث الجليل فهـي صفـة (التقوى) وفي التقوى معنى الوقاية والحفظ والكلاءة والاتقاء والتجنب لما لا يليق ، والعبد التقي هو الذي يبالغ في اجتناب الذنوب ، ويحصن نفسه ويحفظها بالعبادة ، والتقرب الى الله ، ويصونها من الريب والشبهات ، ولذلك يقول الرسولﷺ : (لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس) .

وتأمل مرة أخرى مدى دقتهﷺ في اختيار كلماته الشاملة الجامعة المجتمعة ، فقد بالغ الرسول عليه الصلاة والسلام في هذه الصفة العظيمة الكريمة (التقوى) فلم يقل (إن الله يحب المتقي) بل قال (التقيُّ) وهو البليغ في التقـوى حتـى صارت ملـكة كالرحيم والعليم ، فيكون المعنى أبلغ من المتقي .

والمعنى : إن الله يحب من أصرَّ على التقوى ورسخ فيها فصارت التقوى له ملكة راسخة . وأصل التقوى في اللغة : الاتقاء ، والاتقاء أن يجعل الشيء حاجزاً بينه وبين ما يكرهه ، فكأن التقي يجعل الاتيان بما أمر به والانتهاء عما نُهِيَ عنه حاجزاً بينه وبين العذاب .

والوقاية حفـظ الشيء ممـا يؤذيه ويضره ، ويقـال : وَقَيْتُ الشيء أقيه وقـاية ووقاء . قال تعالى : (فوقاهم الله . .) (ووقاهم عذاب السعير) (قُـوا أنفسـكم وأهليكم نارا) .

والتقوى في الشرع : هو حفظ النفس عما يؤثم وجعلها في وقاية من عذاب الله

تعالى وغضبه ، باتباع أمره ولزوم طاعته ، وتجنب معصيته ، وذلك بترك المحظور ، ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روى (الحلال بينّ والحرام بينّ) .

وللتقوى ثلاث مراتب :

الأولى : تقوى عامة المؤمنين ، وهي التقوى من العذاب المخلد بالتبري عن الشرك . فهي عبارة عن الايمان والتصديق بما علم بالضرورة انه من دين محمدﷺ .

والثانية : تقوى الخواص ، وهي التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك ، وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع ، ولا يتم هذا إلا بالإخلاص عن الشرك والرياء والنفاق ، قال الله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) أي ممحضين له الدين والطاعة من الشرك والرياء .

والثالثة : تقوى أخص الخواص ، وهي التنزه عما يشغل سر العبد عن الحق ، والتبتل إليه بالاشتغال بذكر ذي الجلال على وجه الجمال ، والتضرع إليه ، والحضور والمراقبة ، بحيث يرى أنه ليس في الوجود إلا الله ، ولذا قال النبيﷺ : (أصدق كلمة ، قالها لبيد : (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) ، وإنما كانت تلك الكلمة أصدق كلمة قالها الشاعر لدلالتها على ما دل عليه القرآن في قوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) . . وهذه الدرجة لا يصل إليها إلا الكمَّل من عباده . .

ولا شك أن هذه الكلمة من الكلمات الجامعة المجتمعة (التقوى) ، فقد قال النيسابوري : أجل شيء يفتح الله تعالى به على عبده : التقوى ، فإن منه يتشعب جميع الخيرات وأسباب القربة والتقرب .

وأصل التقوى الاخلاص ، وحقيقته التخلي عن كل شيء إلا ممن تقواك .

ولذلك وعد الله الذين يمتثلون لأوامره ونواهيه ويقتدون بسنة نبيه بالتقوى مكافأة لهم على صنيعهم . فقال عز من قائل : (إن الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

فالتقوى هبة عظيمة ، يختار الله لها القلوب ، بعد امتحان واختيار ، وبعد تخليص وتمحيص ، فلا يضعها في قلب إلا وقد تهيأ لها ، وقد ثبت أنه يستحقها .

وقال خامس الخلفاء الراشدين عمر بن العزيز : (ليس تقوى الله بصيام النهار

ولا بقيام الليل ، والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله ، فمن رُزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير) .

والصفة الثالثة من هذه الصفات هي صفة (الغنى) وهي ضد الفقر .

والغنى يقال لعدم الحاجة مطلقاً ، وليس ذلك إلا الله وحده فهو الغني عن عباده وهم الفقراء إليه (والله الغني وأنتم الفقراء) . ويقال لقلة الحاجات كما يقال لكثرة القينات . .

والمراد بالغنى غنى النفس ، أي ان يكون الإنسان عفيفاً عزيزاً يترفع عن الدنيا ، ولا يجعل يده سفلى ، وأن يجعل حاجته إلى ربه لا إلى الناس . والمراد بالغنى هنا : ان الله يحب العبد المستغني عن الخلق ، لأن الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس .

وقد بينّ الرسولﷺ أن الغنى ليس بسعة الثروة ، ووفرة المال ، وكثرة المتاع ، ولكن الغنى غنى النفس ، فمن استغنى بما في يده عما في أيدي الناس فهو الغني الجدير بلقب الغني .

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة : (ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغني غني النفس) . فغنى النفس عبارة عن القناعة ، وعن الرضا بالقسمة ، والاكتفاء بقدر الضرورة . ففي الحديث (أرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس) .

ولذلك يقول أبو تراب النخشبي : (حقيقة الغنى ان تستغني عمن هو مثلك ، وحقيقة الفقر أن تفتقر إلى من هو مثلك) . ويقول يحي بن معاذ : (ثلاث خصال من صفات الأولياء : الثقة بالله في كل شيء ، والغنى به عن كل شيء والرجوع إليه في كل شيء) . وإعلم ان السبيل إلى غنى النفس الرضا بما قدر الله وأعطى ، والثقة بأن ما عنده خير وأبقى ، وأن المال في يد الشره البخيل فقر ومذلة ، وفي يد القانع الكريم غنى ومعزة .

وقد استعاذ النبيﷺ من الفقر والذلة ، لما يترتب على ذلك ، من الجزع بقلة الصبر ، وعدم الرضا بالقضاء ، أو الفاقة والحاجة إلى الخلق .

وليس المراد بالرضا والاستغناء هو عدم العمل والأخذ في أسباب الحياة ، فالعمل

مطلوب والسعي إلى الرزق مطلوب كذلك ، وإنما في حدود الشرع ، وعدم التطلع إلى ما في أيدي الناس ؛ فالعبد يعمل ويسعى ويتوكل على الله في تسديده وتوفيقه . . وقد كان النبيﷺ يحب من أصحابه العمل ، ويكره لهم البطالة .

وقد يكون المراد من الغنى ، الغنى بالمال ، وليس هذا ببعيد ، لأن المال في يد المؤمن يعين على الصالحات ، ويستطيع المرء أن يفعل الكثير من المكرمات ، ويؤدي به الحقوق والواجبات ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (نعم المال الصالح للرجل الصالح) ، ومعنى هذا ان الله يحب الغني بالمال إذا كان الغني شاكراً له بما يليق بلطفه وكرمه ، ويعطي الجزيل من ماله ، إذ لا يتوصل إلى ثواب الله في الآخرة بالغنى ، وإنما يتوصل إليه بالشكر .

وإنما خص الله الغني بالذكر لكثرة منافعه بانفاقه المال في سبيل الله وفي سبيل الخير ، وفي الغني الذي ينفق في سبيل الله من النفع ما ليس في الفقير .

وقد يشمل الغنى ، الغني بقوته وعمله في الصناعات بما يفيد المسلمين قوة ، فهو غني بنفعه وعمله .

فالغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر . وقد يكون الفقر أسلم ، لأن الغنى كثيراً ما يجر الى الطغيان والعصيان . فإن كان إلى غنى النفس غنى المال ، فتلك الدرجة العليا ، والعزة القعساء .

أما الصفة الرابعة : فهي صفة (الخفاء) .

ومادة الخفاء فيها معنى الكتمان والإسرار ، ولذلك يقول العرب : (برح الخفاء) أي انكشف السرّ وبدا ، ويقولون للرجل المستتر مُستخف .

والمراد بالشخص الخفي الذي يعتزل عند العبادة ، فلا يتظاهر ولا يتباهى ، ولا يرائى ، ولا يخادع ، بل يكون بين الناس غريباً مجهولاً يفعل ما يفعل من وجوه الخير ، والبر والمعروف وهو مستخف مستتر .

« فالخفي » بالخاء المعجمة ، وهي الرواية المشهورة الصحيحة ، فهو من الخفاء والانفراد عن الناس . وهي كلمة جامعة يعبر بها عن العزلة وعدم الظهور ، فهو يعمل لوجه الله تعالى ، فإذا انفق في سبيل الله من غير اعلان ولا جلبة ولا ضوضاء كما يفعله شرار الناس اليوم .

ولقد جاء في كتاب « غربة الإسلام » هذه العبارة :

(وفي حديث سعد عن النبيﷺ : (ان الله يحب العبد الخفي التقي) وفي حديث معاذ رضي الله عنه عن النبيﷺ : (إن الله يحب من عباده الأخفياء الأتقياء الذين اذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا أولئك ائمة الهدى ومصابيح العلم) .

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : (طوبى لكل عبد لم يعرف الناس ، ولم تعرفه الناس ، وعرفه الله منه برضوان ، أولئك مصابيح الهدى ، تجلى عنهم كل فتنة مظلمة) .

وقال ابن مسعود : كونوا جُدد القلوب ، خُلقان الثياب ،[1] مصابيح الظلام ، تخفون عن أهل الأرض وتُعرفون في أهل السماء) . فهؤلاء أخص أهل الغربة ، وهم الفرّارون بدينهم من الفتن ، وهم النزاع من القبائل ، الذين يحشرون مع عيسى عليه السلام ، وهم بين أهل الآخرة أعز من الكبريت الأحمر ، فكيف يكون حالهم بين أهل الدنيا . . وتخفي حالهم غالباً على الفريقين كما قال :

تواريتُ عن دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
ولو تسأل الأيام :ما اسمي ما درت وأين مكاني ؟ ما عرفن مكاني

ومن ظهر منهم للناس فهو بينهم ببدنه ، وقلبه معلق بالنظر الاعلى ، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في وصفهم :

جسمي معهم ، غير أن الروح عندكمو فالجسم في غربة ، والروح فى وطن

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدناه يشير الى التخفي بالعبادة والتهجد ، فهو يقول مثلاً في حق عباد الله الأخيار : (إن المتّقين في جنّات وعيون آخذين ما آتاهم ربهُم ، إنهُم كانوا قبل ذلك محْسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) .

والليل هو وقت الظلام ، وفي الظلام يكون استتار واستخفاء ويتحدث القرآن الكريم عن عبادة الرسولﷺ ، فإذا هو يشير الى وقوعها بالليل اكثر من مرة ، كأن

---

(١) جدد : جمع جديد ، وخلقان الثياب وأخلاقها : هي الثياب القديمة التي لبست حتى بليت .

يقول : (يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا . إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً . إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا . إن لك في النهار سبْحاً طويلاً) .

ويقول القرآن الكريم ايضاً (أقم الصلاة لدُلوك الشّمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً) .

ويقول القرآن في شأن عباد الرحمن : (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) .

وهناك رواية أخرى لهذا الحديث الذي معنا تقول : (الحفي) بالحاء ، بدل (الخفي) والحفي هو من يرحم الضعفاء ، ولذلك يقال : تحفيت به ، أي بالغت في إكرامه وعنيت به ، وقد يكون المراد بالحفي العالم بالشيء ، والمستقصي في السؤال لأجل المعرفة)[1]

وبعد : فما أجمل أن تجتمع للمؤمن هذه الخصال الأربع : العبودية ، والتقوى ، والغنى ، وتجنب التظاهر ، إنها إن اجتمعت له فقد رفعت مكانته بين الأخيار الأبرار من الناس .

فاللهم هبنا صدق العبودية لك ، وإخلاص التقوى من أجلك ، وامنحنا من غنى النفس واليد ما يغنينا عن سواك ، وارزقنا حلاوة الاستخفاء بطاعتك حتى نكون من عبادك الذين قلت فيهم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جناتُ عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربّه) .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٨٣ .

الحديث السادس

عظة نبوية

عن أبي نجيح العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ذات يوم ، ثم أقبل علينا ، فوعظنا موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : (أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة ، وإن عبداً حبشياً مجدعاً ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، فتمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم محدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة) . رواه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم وابن ماجة .

المعاني والتصوير

راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل أبو نجيح العرباض بن سارية الغزاري السلمي ، كان من أهل الصفة ، وهو من البكائين الذين نزل فيهم قوله تبارك وتعالى : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً على ألا يجدوا ما ينفقون) .

روى عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر الكلاعي قالا : أتينا العرباض بن سارية فسلمنا عليه وقلنا أتيناك زائرين ومقتبسين فروى لهما هذا الحديث الجليل .

ولقد أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بأن يعظ المؤمنين بالقول البليغ والموعظة الحسنة ، فقال عز من قائل : (وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) .

وقال (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وكان حريصاً على هداية قومه ، يعني بتفقد شئونهم ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم إلى ما يقربهم بالخير ، ويبعدهم عن الشر ، وصدق الله تعالى إذ يقول في

سورة التوبة : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

ويقول في سورة الجمعة : (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

ولذا فقد كان رسول الله ﷺ يتخير أنسب الأوقات التي ينشط فيها المسلمون لتلقي المواعظ النبوية الكريمة في غير أوقات الخطب المعتادة لخطب الجمع والأعياد ، وكان يعظهم فيها ، ولا يكثر خشية أن يسأموا ويملوا .

وجاء في هذه الرواية التي معنا أن هذه العظة كانت بعد صلاة الصبح ، وهذا يدل على أن رسول الله ﷺ يحسن اختيار الزمان والمكان لعظته وتوجيهه ، فقد اختار المسجد للموعظة لأنه المكان الملائم للتذكير بالله والدعوة إليه ، والقرآن الكريم يقول : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وقد أحسن في اختيار الوقت للموعظة فجعلها بعد الصلاة التي تنهي عن الفحشاء والمنكر ، وبعد صلاة الصبح في أول النهار ، وهذا وقت يذكر الانسان بإقبال النهار وإدبار الليل ، وبإخراج النور والضياء من خلال الظلمات ، وهو مشهد يذكر بقدرة الله تعالى .

ولقد أجاد ذلك الصحابي الجليل في وصف موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام فقال (وعظنا موعظة بليغة) . فقد وعظهم رسول الله ﷺ موعظة بليغة جامعة وصفها راوي الحديث بقوله (وعظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت العيون) أي فزعت منها القلوب وجرت الدموع بسببها في العيون وإنما كان ذلك لأمرين : أولهما أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان بليغاً في عظته مؤثراً في كلامه ، ولا عجب فقد آتاه الله جوامع الكلم الطيب ، واختصر له القول اختصاراً ، وكان إذا خطب في الانذار والتخويف ارتفع صوته ، وتجلى غضبه ، واحمرت عيناه ، فكأنه منذر بإقبال جيش يحمل العذاب ، فإذا انتهى من ذلك ، ورجع إلى حاله المألوفة ، وجدته أطلق الناس وجهاً ، وأحسنهم بشراً .

والأمر الآخر : هو حسن استعداد السامعين لتلقي العظة وتقبلها والتأثر بها والاستجابة لها ، ولذلك نجد القرآن الكريم يقول في وصف الأخيار من عباده : (الله

أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) .

ويقول : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً)

ويقول : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) . .

هذا ، وفي الحديث الذي معنا طائفة من المفردات يعاون توضيحها على فهم الحديث : منها قوله (موعظة بليغة) فالوعظ هو النصح والتذكير بالعواقب ، والبليغة هي المؤثرة ، أي بالغ فيها بالتخويف والإنذار لترقيق القلوب ، والله تعالى يقول (وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً)

وتلك الموعظة المؤثرة خشعت لها القلوب ، وسالت على أثرها العيون بالدموع ، لتعبر عن تأثرها بها ، فقال (وذرفت لها العيون) أي جرى دمعها وسال ، يقال : ذرفت العين - بفتح الراء - تذرف - بكسرها إذا جرى ومعها وسال ، وهذا يفيد أن سامعيها قد تأثروا بها لبلاغتها ووصولها مواطن التأثر في قلوبهم ونفوسهم .

ثم قال : (ووجلت منها القلوب) ، وجلت - بكسر الجيم من الوجل بفتح الواو والجيم ، وهو الفزع ، وقيل : الوجل هو استشعار الخوف . يقول الله تعالى في سورة الأنفال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ويقول في سورة الحجر : (ونبئهم عن ضيف ابراهيم ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال : إنّا منكم وجلون) . ويقول في سورة المؤمنون : (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهّم إلى ربهم راجعون) .

ولقد أحس الصحابة الكرام بعد سماع هذه الموعظة العظيمة أن رسول الله سيتركهم إلى لقاء ربه تعالى ؛ فقالوا : (يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع فأوصنا) ، ولعل الرسول عليه الصلاة والسلام قد أبلغ في تلك العظة ، وشدد التحذير فيها ، حتى أحس القوم أنها موعظة « مودع » أي راحل عن الحياة ، لأن المودع يحاول أن يستكمل كل ما يريد من القول والعمل ، أو لعل الرسول ﷺ ذكر في هذه الموعظة ، ما يشير أو يرمز إلى رحيله عن الدنيا ، فأراد السامعون الاستزادة من التوجيه والإرشاد ؛

ولدلك رجوا منه موعظة جامعة كافية ، يسترشدون بها في حياتهم ، فينالون عن طريق التزامها والعمل بها سعادة الدنيا والأخرة . فقال : (أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة ، ولو تأمر عليكم عبد) .

وأصل الوصية : التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ من قولهم أرض واصيةٌ متصلة النبات ، ويقال : أوصاه ووصاه ، قال تعالى (ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب) وقرىء (وأوصى) .

فأجابهم الرسول ﷺ إلى ما أرادوا ، وأوجز لهم العظة ، وجمع شتات التذكير في كلمات قلائل ولكنها جلائل ، فأوصاهم بتقوى الله جل جلاله ! كما أوصاهم بالطاعة لأولياء الأمور ، والتقوى والطاعة أصلان من أصول المجتمع ، فبالتقوى يصلح الفرد في نفسه وذاته ، وبالطاعة ينتظم أمر الجماعة . .

والتقوى فيها معنى الاجتناب لما لا يليق ، والبعد عما يشين ، والتحلي بما يزين ، ولذلك بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بالدعوة إليها والحث عليها ، والقرآن الكريم يقول في سورة آل عمران : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .

ثم أرشد هذا الحديث الشريف إلى جانب من نظام الحكم في الإسلام ، فهو قائم على العدل من الحاكم وتمسكه بكتاب الله وسنة رسوله ، وعلى السمع والطاعة من المحكوم ، وليس هناك فرق بين إنسان وإنسان بالجنس أو اللون أو النسب (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ولذلك لا يمنع الإسلام أن يكون الوالي من أي طبقة ما دام أهلاً للولاية قادراً عليها ، وليس هناك أي غضاضة أن يسمع المسلم ويطيع إليه ، حتى ولو فرضنا أنه عبد حبشي مقطع الأطراف ، وليس وراء هذا تأكيد لمبدأ المساواة بين المسلمين ، وضرورة تماسكهم ووحدة صفهم . .

والمراد بالسمع والطاعة : السمع من ولاة الأمور المسلمين الصالحين وطاعتهم ، إذ بدون هذا السمع وهذه الطاعة تصبح أمور المسلمين فوضى ، ولا تستقر شئون المجتمع .

والمراد الاستماع المصحوب بالفهم والمعرفة ، مع الاستجابة وتنفيذ ما يؤمرون

به ، والمقصود حسن التلقي من ولاة الأمور وطاعتهم فيما يرضي الله ولا يخالف دينه ، لأن الحديث يقول : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) .

ويقول الخطابي : يريد طاعة من ولأه الإمام عليكم ، وإن كان عبداً حبشياً . فقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين بطاعة ولي الأمر المسلم ولو كان عبداً ، لأنه لا يطاع لشخصه أو لونه ، وإنما يطاع لأنه ولي الأمر الذي ينفذ ما أمر الله تعالى به وما جاء به الرسول ﷺ .

وقد بالغ الحديث الذي معنا في وصف هذا العبد الحبشي ، فلم يكتف بكونه عبداً حبشياً كأن رأسه زبيبة ـ كما قال ﷺ ـ في بعض الروايات : (اسمعوا واطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) . لم يقتصر على هذا الوصف الذي ليس له ما بعده في تفكيرنا ، بل زاد هذه الصورة عمقاً وتلويناً فقال (وإن عبداً حبشياً مجدعاً) .

فقوله (مجدّعا) بتشديد الدال المفتوحة ـ أي مقطع الأطراف والأعضاء والتشديد للتكثير . والجدع هو قطع الأنف والأذن والشفه وهو بالأنف أخص ، فإذا أطلق غلب عليه . . يقال : رجل أجدع ومجدوع ، إذا كان مقطوع الأنف ، والجدعاء هي مقطوعة الأطراف ، أو المقطوعة الأذن .

وفي رواية أخرى قال ﷺ : (اتقوا الله وإن تأمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له واطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : (إن خليلي ﷺ أوصاني أن أسمع وأطيع ولو كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف) .

وليس معنى السمع والطاعة لولي الأمر عدم تقديم النصح إليه ، والتوجه له ، وتذكيره إذا نسي ، وإرشاده إذا ضل ، وعصيانه إذا أمر بحرام ، لأن الطاعة هنا مشروطة بأن تكون في واجب أو مباح ، وأما إذا أمر الوالي بمعصية فإنه لا يطاع فيها لقوله ﷺ (إنما الطاعة في المعروف) وقوله (لا طاعة لمن لم يطع الله عز وجل) وقوله (لا طاعة لمن عصى الله) .

وبهذا الهدى اهتدى الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم برسول الله ﷺ ،

فقال أبو بكر رضي الله عنه : (أيها الناس : أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم) . وقال عمر رضي الله عنه : (من رأى فيّ اعوجاجاً فليقومه) .

وقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : قال : (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) .

وقوله ﷺ بعد ذلك (فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . .) من دلائل نبوته وآيات صدقه ﷺ إذ أنه يخبر ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ، من أحداث الزمن ، وطغيان الفتن ، إلى غير ذلك من أنباء الغيب التي لا مطمع فيها . لا سبيل إليها إلا بوحي من قبل العزيز الحكيم .

فها هو الإسلام يمتد اليوم في شتى بقاع الأرض ، ولكن قد انحط المسلمون وتفرقوا شيعاً ، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن هذا المصير المشئوم بقوله : (ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذْ به) رواه الشيخان .

وقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : (بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا) .

فقوله (فإنه من يعش بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً) إخبار منه ﷺ بما سيكون ، وهو ما حدث فعلاً بعد وفاته ، فقد ظهر الاختلاف في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، واشتد هذا الخلاف بعد ذلك ، وجنى المسلمون من هذا الخلاف - وما زالوا يجنون - الصاب والعلقم - فماذا يفعل المسلم أمام هذا الاختلاف ؟

لم يتركنا رسولنا ومقتدانا عليه الصلاة والسلام حيارى بدون دليل إزاء هذه الفتن ، بل رسم لنا معالم الطريق ، وأرشدنا إلى طريق النجاة الذي لا طريق سواه .

فبعد أن تنبأ بهذه الفتن قبل حدوثها وصورها كأنه يراها أرشد إلى طريقة الخروج منها ، والنجاة من شرها . فما أجمل هذا الأسلوب التربوي التعليمي وأروع هذا الهدى

النبوي الحكيم ، فبعد أن امتلأت النفوس هولاً ورهبة وتطلعت إلى طوق النجاة ، أخذ الأسلوب التربوي الحكيم الخبير بخبايا النفس البشرية يصف الداء والدواء ، فقال في الوقت المناسب (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، فتمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ) ، أي علينا أن نتمسك بسنته ﷺ ، وسنة الخلفاء الراشدين تمسكاً شديداً لا هوادة فيه ولا تفريط .

فقوله (عليكم بسنتي) أي إلزموها ولا تتركوها أو تتهاونوا في تطبيقها والالتزام بها التزاماً دقيقاً .

والسنة في الأصل هي الطريقة والسيرة ، وإذا أطلقت في الشرع فانما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ، ونهى عنه أو ندب إليه قولاً وفعلاً ، مما لم ينطق به القرآن الكريم ، ولهذا يقال : من مصادر الفقه الاسلامي الكتاب والسنة : أي القرآن والحديث .

وقد قال بعض السلف أن قوله : (فعليكم بسنتي) بيان لما ينبغي اتباعه عند الاختلاف الذي تتعرض له الأمة ،فمن واظب على السنة ، وقال بها ، ولم يمل إلى غيرها من الآراء ، كان من الفرقة الناجية الفائزة يوم القيامة .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يأمرنا هنا أن نستمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين الذين ولوا الأمر من بعده ، واستقاموا على الطريق ، وهم الذين اهتدوا بهدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكانت سنتهم متبعة كاتباع السنة النبوية ، بخلاف غيرهم من ولاة الأمور ، وهؤلاء الخلفاء الراشدون هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز . . فقد نص كثير من الأئمة على أن عمر بن عبد العزيز خليفة راشد أيضاً .

وقوله ﷺ (الراشدين المهديين) ، الراشد اسم فاعل من الرشد ضد الغي . فالراشد هو من عرف الحق واتبعه ، وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم ، والمهديين الذين هداهم الله إلى أقوم طريق ، وهو تأكيد لكلمة الراشدين .

ويوصي ﷺ بأن يعض المسلم على هذه السنة بالنواجذ بقوله : (عضوا عليها بالنواجذ) . . والعض : هو القبض على الشيء بالأسنان في قوة وضغط ، والنواجذ هي الأسنان الضواحك ، أي التي تبدو عند الضحك . وقيل إنها أواخر الأسنان ، وقيل إنها التي بعد الأنياب . والأكثر والأشهر أنها أقصى الأسنان وأواخرها . .

والمعنى : تمسكوا بالسنة كما يمسك العاض الشيء بجميع أضراسه ، فالعبارة كناية عن شدة الاستمساك بأمر الدين والتزام السنة ، أي تمسكوا بالسنة كما يتمسك العاض بجميع أضراسه ، وهذا التعبير كناية عن شدة التمسك بالسنة .

وقد جاء في كتاب (الإبداع) العبارة التالية عن وجوب التمسك بسنة الراشدين المهديين : (وإنما حث على التمسك بطريقتهم لأن ما عرف عن هؤلاء ، أو عن بعضهم أولى بالاتباع من باقي الصحابة اذا وقع بينهم الخلاف فيه وإنما ذكر سنتهم في مقابل سنته ، لأنه علم أنهم لا يخطئون فيما يستخرجونه ويستنبطونه من سنته بالاجتهاد ، ولأنهم المهتدون للشريعة الذين فهموا دين الله بالتلقي من نبيه مشافهة على علم وبصيرة بمواطن التشريع وقرائن الأحوال ، فكان مما اجتهدوا فيه حجة بشهادة الرسول ﷺ لهم بذلك ، ولأنه عرف أن بعض سنته لا تشتهر إلا في زمانهم ، فأضاف إليهم لبيان أن من ذهب إلى رد تلك السنة مخطىء ، فأطلق القول باتباع سنتهم سداً للباب كالأشياء التي سكت عنها الشارع لعدم المقتضى لها في زمانه صلوات الله وسلامه عليه ، ثم وجد الموجب لها بعد وفاته ، فاحتاج الصحابة الى النظر فيها وإدخالها تحت ما تبين من الكليات التي كمل بها الدين) .

ثم حذر أمته من الأخذ بالأمور المبتدعة في الدين مما لا أصل له في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ . فقال (وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة) أي احذروا واجتنبوا محدثات الأمور .

وما أكثر الأحاديث الشريفة الصحيحة التي تحذر من الابتداع ، ومن البدع والمبتدعين ، فمن ذلك قوله ﷺ (إن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة) . وقوله (ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ولا رسوله كان عليه آثام من عمل بها ، لا ينتقص ذلك من أوزارهم شيئاً) وقوله : (ما أحدث قوم بدعة إلا رفع الله مثلها من السنة) وقوله ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ) وقوله (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ)

و « المحدثات » جمع محدثة ، وهي ما لم يكن معروفاً في كتاب ولا سنة ولا إجماع . ويقول ابن منظور في « لسان العرب » : (ومحدثات الأمور الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها) . . وإنما كان السلف الصالح يسيرون على هدى الكتاب والسنة ، بلا ابتداع أو اختراع ، وبلا تحريف أو تبديل .

وقد تستعمل مادة الحدث في التعبير عن الخنا والفاحشة ، فيقال أحدث الرجل ، وأحدثت المرأة ، إذا زنيا .

والبدعة هي العمل الذي لا دليل عليه من الشرع ، أو طريقة في الدين مخترعة ، تضاهي الطريقة الشرعية بقصد السلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية .

وهذا تحذير للأمة من الأخذ بالأمور المبتدعة في الدين مما لا أصل له من كتاب ولا سنة ، وأكد الرسول ذلك بقوله (كل بدعة ضلالة) . . وقد ورد في السنة المطهرة أكثر من نص على الدعوة إلى الاتباع والحذر من الإبتداع ، ومن ذلك قوله ﷺ : (من ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ولا رسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها ، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً) . .

وقوله : (ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة)

ولقد أورد الإمام ابن الأثير في كتابه (النهاية) عبارة طويلة ولكنها جليلة ، توضح المراد بالبدعة ، وهو يقول فيها (البدعة بدعتان : بدعة هدى وبدعة ضلال ، فما كان في خلاف ما أمر الله به رسول الله ﷺ فهو في حيز الذم والإنكار ، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه الله ورسوله فهو في حيز المدح ، وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة .

ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به ، لأن النبي ﷺ قد جعل في ذلك ثوابا فقال : (من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها) وقال ضده (ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها) وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ . ومن هذا النوع قول عمر رضي الله عنه . نعمت البدعة هذه (يعني صلاة التراويح جماعة) . لما كانت من أفعال الخير ، وداخله في حيز المدح سماها بدعة ومدحها ، لأن النبي ﷺ لم يسنها لهم ، وإنما صلاها ليالي ثم تركها ولم يحافظ عليها ، ولا جمع الناس لها ، ولا كانت في زمان أبي بكر ، وإنما عمر رضي الله عنهما جمع الناس عليها ، وندبهم إليها ، فبهذا سماها بدعة . وهي على الحقيقة سنة ، لقوله ﷺ : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي) وقوله : (اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر) .

وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر : (كل محدثة بدعة) وإنما يريد ما

خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة .

وقوله ﷺ : (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم النوابغ . وهذا القول أصل عظيم من أصول الدين ، والمراد بالبدعة المذمومة البدعة الشرعية أي التي يراد بها إحداث شيء في الدين ليس منه ، وأما البدعة بمعناها اللغوي ، وهو ما ظهر مما لم يكن معروفاً في الماضي ، وكان مفيداً مثل انشاء المدارس والمستشفيات والمصانع والمعامل . فليست مذمومة ، لأن الحياة تتجدد ، ووجوه المنافع تتعدد .

و (ضلالة) : الضلالة مأخوذة من الضلال ، وهو الضياع والبطلان ، والمراد بالضلالة هنا الانحراف عن صراط الهدى .

وقد ورد في روايات الحديث زيادة هي : (كل ضلالة في النار) . . ولهذا فقد أمر الرسول بالاستمساك بالسنة المطهرة لأنها تهدي الى الحق وتبعد عن الضلال وبسنة الخلفاء الراشدين المهتدين ، لأنهم استمدوا من رسول الله ﷺ ، وانتهجوا نهجه ، واستمسكوا بطريقته .

وقد حذر رسول الله من الابتداع من الدين ، لأن هذا يؤدي إلى الضلال ، والضلال يؤدي إلى النار ، ولذلك أكد النبي ﷺ باتباع السنة والتمسك بأسبابها في عناية واجتهاد .

وبعد : فهذا الحديث وأمثاله يدل دلالة صدق على أن رسول الله ﷺ قد أوتي جوامع الكلم ، وقد رزقه الله تعالى من الفصاحة والبلاغة ما لم يؤت سواه من ذلك ، ولذلك يسر الله له أن يعظ القوم عظة عميقة مؤثرة ، جعلت الدموع تسيل من العيون ، وجعلت القلوب تقشعر وتخاف . . وهذا يدل من جهة أخرى على درايته وخبرته الواسعة ﷺ بالنفس وطبائع البشر وغرائزهم ، وقدرته على إثارة كوامن الخوف والتأثير فيها .

الحديث السابع

سر استجابة الدعاء

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إنَّ الله تعالى طَيِّبٌ لا يَقبلُ إلا طيِّباً ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المُرْسلين فقال تعالى : (يأيهُّا الرُّسُل كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعملوا صالحاً) الآية[1] ، وقال تعالى : يأيها الذين آمنوا كلوا من طيِّباتِ ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون[2]) ، ثم ذكَرَ الرجل يطيل السَّفَر أشْعَث أغْبَر ، يَمُدُّ يديه إلى السَّماء : يا ربِّ يا رِب ، ومطْعَمُه حرام ، ومشْرْبُه حرام ، وملبسُه حرام ، وغُذيَ بالحرامِ فأنَّى يستجاب له ؟!) .

المعاني والتصوير

هذا الحديث الجليل هو أحد الأحاديث التي عليها قواعد الإسلام ومباني الأحكام ، وعليه العمدة في اكتساب الحلال واجتناب الحرام ـ كما قال النووي ـ ففيه الحث على الإنفاق من الحلال والنهي عن الإنفاق من غيره ، وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه ، وأن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره .

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : تُليت عند رسول الله ﷺ هذه الآية: (يا أيها الناسُ كُلوا مما في الأرض حَلالاً طيّباً) ، فقال سعد بن أبي وقاص : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة . فقال رسول الله : يا سعد : أطِبْ مطعمك تكن مستجاب الدعوة . والذي نفس محمد بيده ان العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل الله منه عملاً أربعين يوماً وأيمُّا عبد نبْت لحمه من سُحْت فالنار أولى به) .

---

(١) المؤمنون/ ٥١

(٢) البقرة/ ١٧٢

أما معنى الحديث إجمالاً فهو أن رسول الله ﷺ يحث أمته على البر ومكارم الأخلاق، في كل شأن من شئون هذه الحياة الدنيا. ومما لا ريب فيه أن خير البر وأنفعه للمجتمع الإنساني هو أن يسلك كلٌ فرد من الأفراد المكلفين سبيل العفة والعدل في كل ملاذه وشهواته ، فيتجافى في مطعمه ومشربه وملبسه ووسائلها كلَّ بغي وعدوان ، فلا يأكل إلا حلالاً ، ولا يشرب إلا حلالا ، ولا يستمتع إلا بالحلال .

فالحديث يشرح لنا قضية الطيب والخبيث في هذه الحياة ، وبين لنا المنهج الذي يسلكه عباد الرحمن فيما يتعلق بالمأكل والمشرب والملبس والعمل ، من ناحية الحل والحرمة ، فما كان حلالاً مباحاً فهو مقبول يؤدي إلى الخير والرضا ، وما كان حراماً فهو مردود يؤدي إلى الشر والسوء .

وقد يخيل للإنسان أن ملاذ الحياة الدنيا ومطالبها كثيرة لا تنتهي إلى غاية ولا تقف عند حد ، فيساق بعوامل هذا الملاذ إلى النضال الدائم والجهاد المستمر في سبيل تحصيلها والوصول إلى أقصى حد ممكن منها ، ولكن العاقل حقا إذا أمعن النظر في شهوات الحياة الدنيا وملاذها يجدها منحصرة في دائرة ضيقة لا تستلزم الخروج عن السبل القويمة التي أمر الله عباده بسلوكها في تحصيل هذه الشهوات ، ولا تحتاج إلى ذلك الصراع الذي كثيراً ما يذهب بكرامة الإنسان ومروءته وهو غافل لاه . ويمكن حصر مهام لذات الحياة في شهوتي البطن والفرج وما يستلزمانه من مال وذرية وجاه وغير ذلك . وإلى هذا يشير قوله تعالى : (زُين للناس حبُّ الشهواتِ من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام والحرث) .

فهذه الآية الكريمة تدل على أن معظم الشهوات التي يفتتن بها الناس في حياتهم الدنيا من هذه الشهوات ، فهي محببة إلى الانسان بطبيعته ، ومع ذلك فهي مزينة بعوامل مختلفة ، ولذا لم تصرح بالفاعل الذي زينها لأنها متنوعة بتنوع تلك الشهوات ، فمثلاً : شهوة النساء ، قد حببت إلى الإنسان بفطرته ، ولكن يزينها له ولا يدفعه إلى تحصيلها إلا ما يراه من جمال المرأة ، واستعدادها لقضاء تلك الشهوة ، فلو عاش الرجل بعيداً عن النساء لا يكون لتلك الشهوة سلطان عليه . . وكذلك شهوة المال محببة إلى الإنسان ، ولكن لا يزينها إلا ما يترتب على المال من قضاء مآرب وغايات لا يمكن الحصول عليها إلا بالمال . . وهكذا جميع الشهوات اللازمة لطبيعة الإنسان محببة إليه بفطرته ، ومزينة إليه بعامل قوي يسوقه إليها ، ثم إن كانت هذه العوامل

مشروعة يقرها الدين كانت هذه الشهوات ممدوحة ، والا كانت من شر الآفات المذمومة . .

وقد أشارت الآية الكريمة الى أن هذه اشهوات المحبوبة للانسان بفطرته متاع الحياة الدنيا وزينتها ، ومهما بلغ من أمرها فإنها منقطعة لا تدوم . بل هي متاع قليل إذا قيست بالنعيم الدائم في يوم القيامة ، كما قال سبحانه في آية أخرى : (قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى) . . فينبغي للعقلاء أن يقفوا عند الحد المباح لهم ، ويعلموا أن الخروج عن ذلك الحد موجب للشقاء والحرمان من النعيم الخالد الذي أشار إليه بقوله : (ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤ نبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد)

فالميزان المستقيم العادل الذي لا يختل أبداً هو اتباع أوامر الدين ، واجتناب نواهيه في متاع الدنيا وشهواتها . .

ولقد بينّ لنا الحديث معنا أن شهوة البطن واللباس وما يستلزمه من مالٍ وبيع وشراء يجب أن تكون مقصورة على الحلال الطيب ، فلا يحل لأحد أن تدفعه شهوته الزائلة إلى عصيان الله والخروج على النظم الاجتماعية الصالحة التي أمر الله بها عباده على اختلاف درجاتهم ، فإن من تطغى عليه شهوته وتدفعه إلى الاعتداء على الناس في أموالهم وأرزاقهم بدون حساب كان مصيره الى الهلاك العاجل ، والعذاب الدائم ، والحرمان من النعيم الخالد .

ومن هنا فقد بدأ هذا الحديث الشريف ببيان أن الله سبحانه وتعالى مقدس منزه عن النقائص والعيوب كلها ، وهو لا يقبل من الأعمال الا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلها .

والطيبُ ضد الخبيث ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : (قُلْ لا يَسْتوى الخبيثُ والطيبُ ، ولو أعجبك كثرةُ الخبيث) .

والطيب أيضا الحلال .

وقال الرازي في تفسيره : الطيب في الأصل هو ما يُستَلذُّ به ويستطاب ، ويوصف به الطاهر ، والحلال على جهة التشبيه ، لأن النجس تكرهه النفس فلا تستلذُّه ، والحرام غير مستلذ لأن الشرع يزجر عنه) . .

ولذا فقد بدأ الحديث بداية حاسمة قوية تؤكد أن الله تعالى طيب منزه عن النقائص والعيوب . وهذا كما في قوله تعالى : (الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون) ، والمراد المنزهون من أدناس الفواحش وأوضارها[1] . . .

وقوله ﷺ : (إن الله تعالى طيب) هذا قد جاء أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، وجواد يحب الجود) خرجه الترمذي .

وقد تكرر في الحديث ـ كما ترى ـ ذكر الطيب والطيبات ، وأكثر ما يرد بمعنى الحلال كما ان الخبيث كناية عن الحرام وقد يرد الطيب بمعنى الطاهر ، وهو المراد في هذا الحديث . . ومن ذلك قول الرسول ﷺ لعمار : (مرحبا بالطيب المطيَّب) ؛ أي الطاهر المطهر . وقد سمي النبي عليه الصلاة والسلام المدينة (طيْبة) أو (طابة) ، بمعنى الطاهرة ، وذلك لخلوصها من الشرك وتطهيرها منه . كما قال (إن المدينة طيبة تنفي خبثها وينصع طيبها) . .

وقد اتسع مدلول هذه الكلمة الجامعة (طيب) فأصبح توصف به الأعمال والأقوال والاعتقادات ، وكل هذه تنقسم إلى طيب وخبيث .

يقالُ : طاب الشيءُ يطيبُ طيْباً فهو طيِّب ، قال تعالى (فانكحوا ما طاب لكم) . .

وأصل الطيِّب ما تستلذُّه الحواس وما تستلذه النفس ، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز ، وبقدر ما يجوز ، ومن المكان الذي يجوز فإنه متى كان كذلك كان طيباً عاجلاً وآجلاً لا يُستَوْخَمُ ، وإلا فإنَّهُ وإن كان طيِّباً عاجلاً لم يطِبْ آجلاً وعلى ذلك قوله : (كلوا من طيبات ما رزقناكم) (فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً) (كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وهذا هو المراد بقوله : (والطيبات من الرزق) .

أما الطيب من الانسان فهو من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وإياهم قصد بقوله : (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) وقال (هَبْ لي من لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طيبة) . وقال الله تعالى : (ليميز الله الخبيث من الطيب) وقوله (والطيبات للطيبين) تنبيه أن الأعمال الطيبة تكون من الطيبين كما

---

(١)الوضر : وسخ الدسم واللبن .

روى (المؤمن أطيبُ من عمله ، والكافر أخبث من عمله) وقوله تعالى : (ولا تتبدَّلوا الخبيث بالطيب) أي الأعمال السيئة بالأعمال الصالحة ، وعلى هذا قوله تعالى) (مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة) وقوله : (إليه يصعدُ الكلم الطيب) (ومساكن طيبة) أي طاهرة ذكية مُسْتلذّة .

وأما قوله (والبلد الطيب) إشارة إلى الأرض الزكية ، وقوله (صعيداً طيباً) أي تراباً لا نجاسة به ، وسُمِّي الاستنجاء استطابة لما فيه من التَّطيب والتَّطهر . وقيل : الأطيبان الأكل والنكاح . وطعام مَطْيَبَةٍ للنفس إذا طابت به النفس ، ويقال : للطيب طابُ ، وبالمدينة تمْرٌ يقال له : طابُ وسميت المدينة طيْبة . وقوله : (طوبى لهم) قيل هو اسم شجرة في الجنة ، وقيل بل إشارة الى كل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء وعز بلا زوال وغنى بلا فقر .

فتأمل دقة اختياره ﷺ لكلماته فهي أدق من السحر وأهول من البحر . . .

ومعنى قوله ﷺ (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً) هو أن الله تبارك وتعالى منزه عن النقائص والعيوب كلها ، ولذلك لا يقبل إلا الطاهر النقي الخالص ، وقد ورد معنى هذا الحديث في حديث الصدقة ولفظه (لا يتصدق أحد إلا بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيِّباً) ، والمراد أنه تعالى لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيباً حلالاً . ولكن المراد في هذا الحديث الذي نحن بصدده الآن : (لا يقبل إلا طيباً) أعم من ذلك بكثير ، وهو أن الله تعالى لا يتقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً حلالاً ، طاهراً خالياً من السحت والحرام : (وانفقوا من طيبات ما كسبتم) ولا يتقبل من القول إلا الكلام الجميل الطيب لقوله (إليه يصعد الكَلِمُ الطيب والعملُ الصالحُ يَرْفَعُهُ) وقد جعل القرآن الكريم الكلمة الطيبة نافعة مثمرة ، مؤثرة أفضل الآثار ، وجعل الكلمة الخبيثة سيئة العواقب والآثار ، فقال (الَمْ تَرَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها في السماء ، تُؤْتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار) . .

ومن هنا تدرك عظمة هذا الأسلوب النبوي في اختياره لكلماته البارعة الجامعة المجتمعة ، فكلمة (طيب) يوصف بها الأعمال والأقوال والاعتقادات ، وغير ذلك ،

وكل ذلك ينقسم الى طيب وخبيث . وقد ورد في الحديث : إن المؤمن إذا زار أخاه في الله تقول له الملائكة : (طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً) ، فالمؤمن كله طيب قلبه ولسانه وجسده بما يسكن في قلبه من الإيمان ويظهر على لسانه من الذكر وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة التي هي ثمرة الإيمان وداخلة في اسمه فإن هذه الطيبات كلها يقبلها الله عز وجل .

والقرآن الكريم يصف عباد الله الأخيار بأنهم طيبون ، أي طيبون في اعتقادهم وفي عملهم ، وفي أموالهم وأقوالهم : (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) وتقول الملائكة لنفس المؤمن الطيبة عند الموت : (أخرجي أيتها النفس الطيِّبة ، كانت في الجسد الطيب) . فإذا جاء هؤلاء المؤمنون إلى الجنة ذكّرتهم الملائكة بأن هذا النعيم أجرهم وثوابهم ، لأنهم كانوا طيبين طاهرين (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمرا ، حتى إذا جاءوها وفُتحت أبوابها ، وقال لهم : خزنتها : سلام عليكم طِبْتُم فادخلوها خالدين) . .

ومن هنا تدرك سر اختيار رسول الله ﷺ لهذه الكلمة المصورة لمعناها أروع تصوير ، حيث تفيض بالاشارات النورانية ، والمعاني السامية الغزيرة . وهو عليه الصلاة والسلام متأثر في ذلك بأسلوب القرآن الكريم ، فقد وصف القرآن بكلمة (الطيب) أو (الطيبة) كثيراً من الأمور الحسية والمعنوية ، مما يدل على أن المؤمن لا يطالبه دينه بأن يكون طيباً في أمر دون أمر ، بل عليه أن يكون طيباً طاهراً في كل الأمور ، فقد أشار القرآن - كما ذكرنا - إلى البلد الطيب ، والطيب من القول ، والصعيد الطيب ، والذرية الطيبة ، والشجرة الطيبة ، والريح الطيبة ، والمساكن الطيبة ، والحياة الطيبة ، والتحية الطيبة ، والبلدة الطيبة . . الخ ولأهمية التوجيه الى أكل الطيبات ، وترك الخبيث والحرام ، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبين لأتباعه أن الله تعالى أمر بالحرص على الطيب والبعد عن الخبيث ، بدأ الحديث بالاشارة إلى أن الله تعالى قد طلب ذلك من رسله ، والرسل هم النماذج العليا للبشر ، والبشر مأمورون بهذا تبعاً للمرسلين ، ولذلك وجهه الى رسله وإذا كان الله قد أمر رسله بهذا ، وهم الذين صنعهم ربهم على عينه ، واختارهم لوحيه ، وجعلهم الرواد والقواد لعباده ، فما أحوج غيرهم من عامة البشر إلى أن يطالبهم ربهم بالحرص على الطيب والحذر من الخبيث .

والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال وبالعمل الصالح ، فما كان الأكل حلالاً فالعمل الصالح مقبول ، فان كان الأكل غير حلال فكيف يكون العمل مقبولاً ؟

فما أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال من طيب مطعمه وأن يكون من حلال فبذلك يزكو عمله . . وفي الحديث إشارة إلى أنه لا يقبل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال ، وأن أكل الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله . فإنه قال بعد تقريره : (إن الله لا يقبل إلا طيباً) (وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) وقال أيضا (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) .

ولعل رسول الله ﷺ يريد بتقرير هذه الحقيقة الضخمة بهذا الأسلوب المنطقي أن يرشد نفراً من أمته يظنون أنهم ما داموا يقومون بالصلاة وآدائها فلا عليهم بعد ذلك من بأس ، فهم مغفور لهم وإن غشوا أو خادعوا ، أو طففوا في الكيل أو بخسوا في الميزان ـ مع أن مراعاة حقوق العباد أهم عند الله . فان الفساد الذي ينجم من إشاعة طرق الكسب الحرام أشد من الفساد الذي ينجم من ترك الصلاة أو الكسل عنها على أن لكل حسابا وعقابا .

ولهذا فقد قرر الفقهاء أن الصدقة بالمال الحرام غير مقبولة . وقد اختلف العلماء في حج من حج بمال حرام ، ومن صلى في ثوب حرام : هل يسقط عنه فرض الصلاة والحج بذلك ؟

وفيه عن الإمام أحمد رحمه الله روايتان : فقد وردت عدة أحاديث تدل على أنه لا يقبل العمل مع مباشرة الحرام .

ففي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ (لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، ولا صدقة من غُلول) .

وفي مسند الإمام أحمد رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا يكتسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك فيه ولا يتصدق منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن) .

ويروى من حديث دراج عن أبي حجيرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيﷺ قال : (من كسب مالاً حراماً فتصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه) أخرجه ابن حبان في صحيحه .

وسئل ابن عباس رضي الله عنه عمن كان على عمل فكان يظلم ويأخذ الحرام ، ثم تاب فهو يحج ويعتق ويتصدق منه ، فقال : إن الخبيث لا يكفر الخبيث . وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه .

وفيه : (من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحمه ، أو تصدق به ، أو أنفقه في سبيل الله ، جمع ذلك جميعاً ، ثم قذف به في نار جهنم) .

وروى الطبراني عن النبيﷺ : (إذا خرج الرجل حاجاً بنفقة طيبة ووضع رجله في الركاب فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه مناد من السماء : لبيك وسعديك وزادك حلال ، وراحلتك حلال ، وحجك مبرور غير مأزور ، وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الركاب فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك ، زادك حرام ، ونفقتك حرام ، وحجك غير مبرور) .

وفي مسند الامام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (من اشترى ثوباً بعشرة دراهم في ثمنه درهم واحد حرام لم يتقبل الله له صلاته ما كان عليه) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (لا يقبل الله صلاة امرىء في جوفه حرام) وهذه الأحاديث الكثيرة المذكورة وكثير غيرها تدل دلالة صريحة على أنه لا يتقبل العمل مع مباشرة الحرام ؛ ولكن ما المراد بالقبول هنا ؟

فهل المراد بالقبول الرضا بالعمل ومدح فاعله ، والثناء عليه بين الملائكة والمباهاة به . أم يراد به حصول الثواب والأجر عليه ؟ أم يراد به سقوط الفرض به من الذمة ؟!

وهنا تفصيل لا بد من ايراده لتوضيح معنى القبول : وهو أن القبول قد يراد به الرضا بالعمل ومدح فاعله ، وقد يراد به حصول الثواب والأجر عليه . وقد يراد به سقوط الفرض .

فإن كان المراد ههنا القبول بالمعنى الأول أو الثاني لم يمنع ذلك من سقوط الفرض . به من الذمة كما ورد أنه لا تقبل صلاة الآبق ولا المرأة التي زوجها عليها ساخط ولا من

أتى كاهناً ولا من شرب خمراً أربعين يوماً ، والمراد والله أعلم ـ نفى القبـول بالمعنـى الأول أو الثاني ، وهو المراد والله أعلم ـ من قوله عز وجل (إنما يتقبل الله من المتقين) ولهذا كانت هذه الآية يشتدمنهاخوف السلف على نفوسهم فخافوا ألا يكونوا من المتقين الذين يتقبل الله منهم .

وسئل أحمد رحمه الله عن معنى المتقين فيها فقال : يتقى الأشياء فلا يقع فيما لا يحل .

وقال أبو عبد الله الناجي الزاهد رحمه الله : خمس خصال بها تمام العمل : الايمان بمعرفة الله عز وجل ، ومعرفة الحق ، وإخلاص العمل لله ، والعمل على السنة ، وأكل الحلال ، فإن فقدت واحدة لم يرتفع العمل . وذلك إذا عرفت الله عز وجل ولم تعرف الحق لم تنتفع ، واذا عرفت الحق ولم تعرف الله لم تنتفع ، وان عرفت الله وعرفت الحق لم تخلص العمل لم تنتفع ، وان عرفت الله وعرفت الحق وأخلصت العمل ولم يكن من السنة لم تنتفع ، وإن تمت الأربع ولم يكنِ الأكل من حلال لم تنتفع) .

وقال وهب الورد : لو قمت مقام هذه السارية لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل في بطنك حلال او حرام .

ثم ذكر النبيﷺ استطراداً الرجل يطيل السفر ومع ذلك لا تستجاب له الدعوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : (الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رَبِّ . يا رَبِّ ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك) . وفي هذا التوجيه السامي والارشاد العظيم إشارة منهﷺ إلى آداب الدعاء والى الأسباب التي تقتضي إجابته وإلى ما يمنع من إجابته .

فذكر من الأسباب التي تقتضي إجابة الدعاء أربعة :

أحدهما : إطالة السفر (الرجل يطيل السفر) كالسفر للحج وطلب العمل والغزوات ، وإطالة السفر بمجرده تقتضى إجابة الدعاء كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيﷺ قال : (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد لولده) . (خرجة أبو داوود وابن ماجة والترمذي) . وروى مثله عن ابن مسعود رضي الله عنه من قوله : ومتى طال السفر

كان أقرب إلى إجابة الدعاء ، لأنه مظنة حصول انكسار النفس بطول الغربة عن الأوطان وتحمل المشاق . والانكسار من أعظم أسباب إجابة الدعاء .

والثاني : حصول التبذل في اللباس والهيئة بالشعث والإغبار (أشعث أغبر) كما وصفه رسول الله ﷺ في هذا الحديث الذي معنا ، وكما في الحديث المشهور عن النبي ﷺ : (رب أشعث أغبر ذي طِمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) ، وهذا من مقتضيات إجابة الدعاء .

والشعث : لفظ يدل على انتشار الشيء وتفرق الأمر ، وقد يراد هنا تفرق الشعر من قلة الالتفات اليه .

والأغبر : أي لونه لون الغبار من التعرض للتراب في السير ولما خرج رسول الله ﷺ للاستسقاء خرج متبذلاً متواضعاً متضرعاً . وكان مطرف بن عبد الله قد حبس له ابن أخ فلبس خلقان ثيابه وأخذ عكازاً بيده ، فقيل له ما هذا ؟ قال أستكين لربي لعله أن يشفعني في ابن أخي .

والثالث : مدّ يديه الى السماء ، كما أشار إلى ذلك بقوله ﷺ (يمد يديه الى السماء) وهذا من آداب السماء التي يرجى بسببها إجابته ، وفي حديث سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ (إن الله حيي كريم يستحى إذا رفع إليه يديه أن يردهما صِفْرا خائبتين)[1] وروى نحوه من حديث أنس وجابر وغيرهما : (وكان النبي ﷺ يرفع يديه في الاستسقاء حتى يرى بياض إبطيه ، ورفع يديه يوم بدر يستنصر الله على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه) .

والرابع : الإلحاح على الله عز وجل بتكرير ربوبيته (يا ربِّ ، يا ربِّ) كما جاء في هذا الحديث ، وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء .

وأخرج البزار من حديث عائشة أم المؤمنين مرفوعاً : (إذا قال العبد يا ربِّ أربعاً قال الله لبيك عبدي سل تعطه) .

وخرج أن قوماً شكوا الى النبي ﷺ قحوط المطر ، فقال : أجثوا على الركب وقولوا : يا ربّ ، يا ربّ ، وارفعوا السبابة إلى السماء ، فسقوا حتى أحبّ أن يكشف عنهم) .

---

(١) خرجة الامام احمد وابو داود والترمذي وابن ماجة .

وقال يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً : (ما من عبد يقول يا ربّ ، يا ربّ الا قال له ربه : لبيك لبيك) .

ثم روى عن أبي الدرداء وأبن عباس رضي الله عنهما أنهما كانا يقولان : اسم الله الأكبر ربّ ، ربّ . وعن عطاء قال : ما قال عبد : يا رب يا رب ثلاث مرات الا نظر الله اليه ، فذكر ذلك للحسن فقال : أما تقرؤ ن القرآن ؟ ثم تلا قوله تعالى : (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) .

ومن تأمل الأدعية المذكورة في القر آن الكريم وجدها غالباً تفتح باسم الرب كقوله تعالى : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة وقنا عذاب النار) (ربنا لا تؤ اخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا واغفر لنا وأرحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

وقوله (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) ومثل هذا في القرآن الكريم . وهو إن دل على شيء فانما يدل على مدى تأثر أسلوب الحديث النبوي بالقرآن الكريم . ولا عجب في ذلك فالرسول هو تلميذ القرآن وكان للقرآن وبالقرآن ، وميراثه القرآن .

وكما كشف هذا الحديث الشريف عن سر استجابة الدعاء وبين آدابه التي بمقتضاها يستجيب الله دعاء من دعاه ، ذكر أيضا ما يمنع من إجابة الدعاء فقال مستنكراً إجابة الدعاء بقوله (ومطعمه من حرام ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام ، وغُذي بالحرام ، فاني يستجاب له) !! فالرسول يستنكر هنا أن يكون مطعم الرجل ومشربه وملبسه حراماً ، ومع ذلك يدعو ربه ملحاً في الدعاء أن يقضي له أموراً أو يحقق أشياء ، ومن المستبعد أن يستجيب الله دعاءه ما دام واقعاً في الحرام .

فأشار هنا الى ان التوسع في الحرام أكلاً وشرباً ولبساً وتغذية يمنع إجابة الدعاء .

قيل لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : (لِمَ تستجاب دعوتك من بين أصحاب رسول الله ؟ قال ما رفعت الى فمي لقمة إلا وأنا عالم من أين مجيئها ، ومن أين خرجت !!

وروى أن موسى عليه السلام رأى رجلاً رافعاً يديه وهو يسأل مجتهداً فقال موسى : أي ربّ . عبدك دعاك وأنت أرحم الراحمين فما صنعت في حاجته ؟ فقال : يا موسى : لو رفع يديه حتى ينقطع ما نظرت في حاجته حتى ينظر في حقي .

وقال مالك بن دينار : أصاب بني اسرائيل بلاء فخرجوا مخرجاً فأوحى الله تعالى الى نبيه : أن أخبرهم أنكم تخرجونَ إلى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلي اكفاً قد سفكتم بها الدماء ، وملأتم بيوتكم من الحرام الآن اشتد غضبي عليكم ، ولن تزدادوا مني إلا بعداً .

وأما قوله ﷺ في الحديث (فأنى يستجاب له) ؟ فهو استفهام وقع على وجه التعجب والاستبعاد ، أي فكيف يستجيب الله دعاءه ؟ فلو أنه أطاب لقمته وملبسه لقرب من موطن الاستجابة ، ولكن كيف يطمع في الاستجابة ويحرص عليها وقد غرق في الحرام ؟ ولكن هذا الاستفهام ليس صريحاً في استحالة الاستجابة ومنعها بالطلية . فيؤخذ من هذا التوسع في الحرام والتغذي به من جملة موانع الإجابة ، وقد يوجد ما يمنع هذا المانع من منعه ، وقد يكون ارتكاب المحرمات الفعلية مانعاً من الإجابة أيضا ، وكذلك ترك الواجبات ، كما في الحديث (ان ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنع استجابة دعاء الأخيار وفعل الطاعات يكون موجباً لاستجابة الدعاء) .

وقال وهب بن منبه : مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر . وعنه قال : العمل الصالح يبلغ الدعاء ، ثم تلا قوله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) .

وقال بعض السلف : لا تستبطيء الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصي ، وأخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

نحن ندعو الإله في كل كرب ثم ننساه عند كشف الكروب
كيف نرجوا اجابةً لدعاء قد سددنا طريقها بالذنوب

وبعد : فإنه ما زال لهذا الحديث الكريم ايحاءات كثيرة تتردد في النفس ويعجز القلم عن تصويرها والتعبير عنها ، ولكننا نحاول جهد طاقتنا أن نغرف لك غرفة من بحره الزاخر بالمعاني الغرر ، والجواهر والدرر ، وانني اقول : إن كل من عرف الشريعة الاسلامية وآدابها ، ونظر في أحاديث الرسول ﷺ نظرة صادقة صحيحة ، لا

يسعه إلا أن يجزم بأنها مرتكزة إلى إله عليم خبير لا تخفي عليه خافية من أحوال عباده ، فقد اشتملت على كل ما فيه صلاح الإنسان في معاشه ومعاده وجميع أطواره ، فعنيت بمحاربة الشهوات وطغيانها عناية عظيمة ، ووضعت ما يترتب عليها من آثار ظالمة حدوداً فاصلة ، ولم تترك نوعاً من الانواع اللازمة لحياة المجتمع الا وضعت له حدوداً صالحة ، وحرمت مجاوزة تلك الحدود والخروج عنها تحريماً غليظاً ، فكانت منارة وهداية للنوع الانساني في كل زمان ومكان .

وإننا نعلم أن العقوبات التي وضعت في تأديب العصاة والمجرمين الخارجين على حدود الله تنقسم الى أقسام ، فمنها ما هو محدود ، ومنها ما هو متروك لحالة الأمة واختلاف طبائع أفرادها ، ومنها ما هو متروك للعقوبات الآخروية التي هي أشد وأنكى من عقوبات الدنيا .

وهذا الحديث الذي معنا دلنا على نوع آخر من العقوبات قد يخفى أمره على كثير من الناس . وهو أن الجرائم التي يفلت صاحبها من الحد والتعزير في الدنيا قد لا يفلت من عقوبة الله العاجلة في الدنيا أيضا ، فقال لنا : إن الذي يأكل الحرام ويشرب الحرام ويلبس الحرام لا يستجيب الله دعاءه في الدنيا ، فان أكل الحرام يترتب عليه قسوة القلب وغفلته عن عظمة خالقه ، وذلك ينافي الخضوع اللازم للدعاء ، فمن أراد أن يناجي الهه القاهر فوق عباده ويقف مستحضراً عظمته وقدرته على كل شيء ، فإنه يجب ان يكون خالياً من الأقذار التي نهاه الهه عنها ، ولذا قال بعضهم : إن من شروط قبول الدعاء أن يكون المرء سليماً من أكل السحت ، فمن تعمد أكل الحرام ، ولبس الحرام أو شرب الحرام فإن ذلك يحول بينه وبين خالقه ، ومن أراد أن يقبله الله ويستجيب له فليتب من ذنوبه توبة صادقة ثم يقف بين يديه خاشعاً خاضعاً تائباً نادماً ، فإن الله تعالى يقبله ويحبه ، لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

تأمل كل ما جاء في هذا الحديث النبوي المعجز في بلاغته وجمال تعبيره وروعة تصويره وعظمة تحليله النفسي ، وفي سمو معانيه وارشاداته وتوجيهاته الحكيمة السديدة . وقل سبحان من أعطى رسولنا جوامع الكلم ، وقل اللهم وفقنا الى طيب الكسب والقول والعمل ، وباعد بينا وبين السحت والحرام ، إنك أفضل مستعان .

الحديث الثامن

مرض التشاؤم

عن أبي عبدالرحمن بن صخر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا عَدْوَى ، ولا طِيرة ، ولا هامة ، ولا صَفَر ، وفِرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد) رواه البخاري .

المعاني والتصوير

جاءت الشريعة الإسلامية لتهذيب النفوس من المزاعم الباطلة ، وطبعها على الاعتقاد بأن لا يقع تصرف في الكون إلا بإذن الله . ومن المزاعم الباطلة التي تجول في النفس الاعتقاد بالعدوى والطيرة .

والتشاؤم عاطفة قديمة ، شاعت في كثير من الأمم القديمة ، ولكنها لا تزال ـ أيضاً ـ تحتل مكانها في الأمم الحديثة ، وقل أن تخلو منها أمة من الأمم أو فرد من الأفراد ، وعلى الرغم من تقدم الدراسات الحديثة العلمية والنفسية ، وعلى الرغم من أن الناس قضوا مع الإسلام نحو أربعة عشر قرناً ، لا يزالون بعيدين عن النظر الصحيح والمنطق السليم في هذا الأمر .

والناس يعنون كل العناية بالأمراض البدنية ، فيلجأون الى الأطباء ، أو الدجالين والمشعوذين ويتناولون الأدوية التي يوصي بها الطبيب ، أو يستعملون العقاقير البلدية ، ومنهم من يلجأ الى الرقي والتمائم ، وأيّاً ما كان فقلّ من الناس من يستكين للمرض ، ويركن إليه ، ولكننا لا نرى الناس يعطون أهمية للأمراض النفسية ، مع أننا نجد فرقاً بينهما في النتائج ، وربما كان المرض النفسي أخطر عاقبة ، وأبعد أثراً . وهل هناك فارق يذكر بين رجل ابتلى بحمى فازعج لها ، وخاف عقابتها ، وقلق على نفسه ومستقبله ، ورجل ابتلاه الله بالتشاؤم فهو في قلق دائم وخوف مستمر ، ذاك فقد لذة الحياة وهدوءها ـ وهذا ـ أيضاً ـ فترى المتشائم يضطرب لمنظر رآه لا يوافقه ، أو يقلق لكلمة يسمعها تنذره ـ في زعمه ـ بشر مستطير ، وهو لا يني ينظر ويسمع ، فهو لا

ينقطع عن الاضطراب والقلق ، وبذلك يظل في كدر وحزن وهم ، وربما ناله من الأمراض البدنية ـ بسبب ذلك ـ ما لا قبل له به ، وقد يعتزم أن يقوم بأمر خطير يعود عليه أو على أمته بالخير واليمن ، ولكن يصادفه في أول الطريق نذير مبهم ، فتفتر همته ، وتضعف إرادته ، ويخلد إلى الأوهام .

والحديث الذي معنا جاء مهاجماً بقوة هذا المرض النفسي الخطير ، واضعاً له العلاج الناجح ، وقد سماه (شركاً) ونفاه في غير غموض ولا التواء ، ولكن النفوس التي لا تستمع إلى صوت العقل لا تستمع إلى صوت الدين ، وقد كان أبسط الأمور أن يدرك المتشائمون أن العلم لا يؤخذ إلا من العلماء ، فكيف يؤخذ علم الغيب من طير يصيح ، أو من يوم من الأيام ، أو شهر من الشهور ؟! وأي معنى علمي او خيالي يأخذه الناس من يوم الأحد ، أو من أربعاء لا تدور ـ كما يقول الأوائل ـ أو من شهر صفر ، أو ما أشبه ذلك ؟ لا شيء إلا الانسياق وراء الوهم !!!

والكل يعلم أن الاسلام الحنيف جاء ناهياً عن التطير ، داعياً إلى التفاؤل ، مريداً بذلك قطع أوهام الجاهلية ، والقضاء على خرافات البشر ، مرتفعاً بالإنسانية إلى حيث يريد لها من العزم والحزم ، والإيمان بمقدر الأشياء وحده .

إن الله تبارك وتعالى هو مسبب الأسباب ، وخالق الأحياء ، ومنظم السنن الكونية ، ومبدع خلقه على أساس النظام والأحكام ، فما من شيء في الكون يجهله خالقه ، وما من أمر يجري بغير ما قضى الله وقدر : (بديع السموات والأرض وإذا قضى امراً فإنما يقول كن فيكون) ، (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكلِ المؤمنون) ، (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) .

وقد جاء ذكر التطير في القرآن الكريم في كثير من المواضع ، وتأملت في حديث التنزيل المجيد عن التطير فإذا هناك أمران عامان :

الأول منهما : أن القرآن لا يذكر التطير إلا منسوباً إلى الكافرين المكذبين للرسل الخارجين عن أمر الله . .

والأمر الآخر : أن حديث التطير في القرآن الكريم يصحبه إخبار بإهلاك هؤلاء المكذبين الكافرين المتطيرين وتعذيبهم ، وإخبار بأن المؤمنين الموقنين ـ وهم لا يتطيرون ـ هم الوارثون لهؤلاء الهالكين المعذبين ، وأن العاقبة للمتقين . .

والرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يريد منا في هذا الحديث الشريف أن نعلم أن الإسلام ضد الأوهام ، وأن نغرس جذور التوحيد والايمان واليقين في قلوبنا وعقولنا ، فنؤ من أن الله هو الذي يعطى ويمنح ، ويخفض ويرفـع ، ويعـز يذل ، وهو على كل شيء قدير .

فقال عليه الصلاة والسلام أول ما قال : (لا عَدْوَى) .

وقد اشتمل الحديث على جملة ألفاظ يجدر بنا أولاً أن نبين معناها ، وأن نوضح الغرض الذي كانوا في الجاهلية يريدونه منها ، ثم نتتبع ذلك بعرض تحليلي بياني لمعنى الحديث ، ولما ينبغي أن يحمل عليه من أفهام وآراء . . وهذه الألفاظ هي : العَدْوَى ، والطِّيَرَةَ ، والهامة ، والصَّفَر .

فالعدوى : اسم مصدر من الاعداء ، يقال : أعداء الداء إعداء وعدوى ، وهو أن يصيبه مثل ما بصاحب الداء . . والعدوى هي الفساد ، أو هي ما يُعدى من جرب أو غيره ، وهو سرايته أو مجاوزته من المريض ، إلى من يقارنه من الأصحاء ، فيمرض بذلك الصحيح .

وذلك أن يكون ببعير جَرَبٌ مثلاً ، فيتقي الناس مخالطته لإبل أخرى ، حذراً من أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه ، ونفهم من هذا أن العدوى هي انتقال المرض من المصاب به إلى غيره ، فمن يخالطه أو يعاشره أو يلامسه ، أو يدنو منه أو يستعمل أشياء ذلك الإنسان المصاب .

وقد اثبت العلم الحديث أن هذه الأمراض المعدية تنتقل من المريض إلى السليم بوساطة جراثيم ضئيلة لا تستطيع العين أن تراها ، ولكن العرب في الجاهلية تعتقد أن الأمراض المعدية ، تُعْدي بطبعها ، وبقدرة ذاتية فيها لا صلة لها بتقدير الله وإرادته مع أن الله هو الذي يهب كل قوة وكل قدرة .

ولما جاء الإسلام ووجد هذا الظن الباطل فاشياً نص على إبطاله ، فأعلمهم النبي عليه الصلاة والسلام أن الأمر أولاً وقبل كل شيء يعود إلى الله تعالى ، وأن المرض لا يتعدى بنفسه ، وإنما الله تعالى هو الذي يمرض وينزل الداء . . . أي ليست هناك قدرة ذاتية للمرض ينتقل بها من شخص الى شخص حسب إرادة هذا المرض ، بل ما يحدث من أشباه ذلك ، إنما هو خاضع لأمر الله سبحانه مسخر تحت مشيئته ، وكأن هذا

التذكير يوحي بالاطمئنـان في نفس من ترغمـه ظروف الحياة على معايشـة مريض أو مساكنته ، لأن الحصانة النفسية تعاون كل المعاونة على الوقـاية والسلامـة ، وكم من متوهمين للعدوى خائفين منها حاذرين لها ، تصيبهم هذه العدوى ، لأنهم استضعفوا أنفسهم أمامها فاستشعروا وقوعها فمعهدوا للعدوى طريقها وللمرض سبيله .

وبهذا نستطيع أن نوفـق بـين قول الحـديث : (لا عدوى) وبـين ما جاء من أحاديث أخرى تشير إلى وقوع العدوى ، وتحث على تجنب أسبابها ، كقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (لا يُوردنَّ مُمْرِض على مُصِحٍّ) وفي رواية : (لا يوردن ذو عاهة على مصح) . والممرض هو صاحب الإبل المريضة ، والمصح هو صاحب الإبل الصحيحة السليمة ، أي لا يوردن الذي إبله مرضى على الذي إبله صحاح ، أي لا يسقيها معها ، وهذا يتضمن الدعوة إلى التفرقة بين المريض والصحيح .

ويرتبط به أيضاً قوله في الحديث الصحيح : (فر من المجذوم فرارك من الأسد) فانهما يعارضان بحسب الظاهر حديث (لا عدوى) .

وكذلك روى البخاري ومسلم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد : ماذا سمعت من رسـول الله ﷺ في الطاعـون ؟ فقـال أسامة : قال رسول الله ﷺ : الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني اسرائيل ، وعلى ما كان قبلكم ، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوا عليها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه) .

وهذا الحديث الجليل يشير الى نظام (الحجر الصحي) الذي يعـزل المرضى ، بمرض معد عن بقية الأصحاء حتى لا ينتشر المرض بين الجميع ، وهو يرشد إلى قطع الطريق على نقل العدوى ، فالذين يوجدون بداخل البلد المطعون أهله لا يخرج منهم أحد إلى خارجه ، لأنه ينقل بخروجه المرض إلى غيره ، وقد يكون هذا الخارج سليماً من الظاهر ، ليست به إصابة بادية ، ولكن المرض يكون فيه من الداخل ، وهذا الشخص هو الذي يسمى (حامل ميكروب المرض) فلو خرج لنقل الميكروب إلى شخص سليم صالح لتقبله فتنتشر العدوى .

ونفهم من الحديث أيضاً التوجيه إلى إبقاء من يقوم بشأن المرضى داخل البلـد المطعون ، فالمرض قد يكون موجوداً عند فريق من أهل البلد دون سائرهم ، فلو أن

من كان سليماً بادر الى الخروج من منطقة المرض ، لكانت النتيجة أن يبقى المرضى وحدهم دون معالج لهم أو ساهر على شئونهم ، مع أن هؤلاء الأصحاء الموجودين في البلد المطعون يستطيعون اتخاذ الحيطة والحذر ، مع بقائهم في البلد لقيامهم بواجبهم الانساني نحو هؤلاء المصابين .

ونفهم من الحديث كذلك التوجيه إلى تقوية الروح المعنوية التي تؤدي إلى لون من المناعة الجسمية التي تقاوم المرض وتتأبى على العدوى ، وكأن هذه التقوية سد يقف في وجه الضعف الذي يبدو بشكل ملحوظ عند كثير من الناس حين الإحساس بعامل من عوامل العدوى . . وكم من أناس أحيوا في أنفسهم هذه الروح المعنوية ، وسيطرت على نفوسهم عوامل الاطمئنان والثقة واليقين ، فسلموا حين دفعتهم ظروف حياتهم إلى التعرض للعدوى في أثناء قيامهم بواجبهم نحو غيرهم من المرضى ، وهنا نتذكر ما رُوي من أن رسول الله ﷺ : أخذ بيد مجذوم فوضعها مع يده في قصعة الطعام ، وقال له : (كُلْ ثقة بالله وتوكلاً عليه) ، وإنما كان ذلك لأن الرسول العظيم ، قد توافر له اليقين بأن العدوى لن تحدث إلا بإرادة الله تعالى ، فتأبى بذلك اليقين على الخضوع لعواملها .

ومع ذلك فهو الذي دعا الى عدم مخالطة المجذوم ، فقد روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام رد رجلاً مجذوماً كان في وفد ثقيف وقال له : (ارجع فقد بايعتك) وإنما رده رسول الله ﷺ لأن الجذام من الأمراض المعدية ، وكانت العرب تتطير منه وتتجنبه .

وقيل انه رده لئلا ينظر أصحابه اليه فيزدرونه ، ويرون لأنفسهم عليه فضلاً فيدخلهم العجب والزهو ، وقيل : لئلا يحزن المجذوم برؤيته للنبي ﷺ وأصحابه وما فُضِّلوا به عليه ، فيقل شكره على بلاء الله تعالى ، وقيل : لئلا يعرض جذام فيظن أن ذلك قد أعداه . . .

هذا ما قيل ، ولكن النفس تميل إلى التعليل الأول ، وفي التاريخ الإسلامي ما يؤيد ذلك ، وهو قصة عمر الفاروق رضى الله عنه حينما علم بأن الطاعون ظهر بالشام في العام السابع عشر ، وكان عمر في الخلافة ، وحدث أن خرج عمر في تلك السنة غازياً ، ومع جمع كبير من المهاجرين والأنصار ، فلما كان على مسافة من أرض الشام ، خرج إليه امراء الأجناد وأخبروه بخبر الطاعون ، وخوفوه وأشاروا عليه بالرجوع ، فجمع عمر الناس ليستشيرهم ، فمال كثير من القوم الى الرجوع ، فقال له أبو عبيدة

ابن الجراح : أفراراً من قدر الله يا عمر ؟

فأجابه عمر قائلا : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو أن رجلاً هبط عُدْوتين (ضفتين) إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس يرعى مَنْ رعى الجدبة بقدر الله ، ويرعى مَنْ رعى الخصبة بقدر الله ؟ ثم أراد عمر أن يستطلع رأي أبي عبيدة على جليته ، وأن يعرف برهانه على قوله ، أو يقنعه بحجته ، فاختلى به ناحية دون الناس ، وبينما الناس كذلك إذ أقبل عبدالرحمن بن عوف ، وكان غائباً عن القوم ، لم يشهد خلافهم بالأمس ، فسأل عبدالرحمن : ما شأن الناس ؟ فأخبروه الخبر ، فقال عِندي في هذا علم . فقال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدَّق ، فماذا عندك ؟

قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه) فقال عمر : فلله الحمد ، انصرفوا أيها الناس ، وعاد بهم .

وهذا الحديث الذي ذكره ابن عوف رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد . وجاء في سيرة خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رضوان الله عليه أن محمد ابن المنذري روى له في الطاعون حديثاً يقول : (عن رسول الله ﷺ أنه ذكر عنده الطاعون ، فقال : انه رجز عذبت به أمم من الأمم ، وقد بقيت منه بقايا ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تهربوا منها) .

وإذا كان الحديث يقول : (لا عدوى في الإسلام) كما جاء في شرح ابن أبي الحديد لكتاب (نهج البلاغة) وجاء أيضاً في كتاب (أمين الأمة) الحديث الذي يقول (لا يعدي شيء شيئاً) والحديث الذي يقول أن أعرابياً سمع الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (لا عدوى) فسأله : يا رسول الله ، فما بالُ الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء ، فيخالطها البعير الأجرب فيجربها ؟ فأجابه : فمن أعدى الأول ؟

وهذا من أبين الحجج ، ومعناه أن الذي أصاب الأول هو قدر الله ، وهو الذي أصاب الثاني أو الثالث بالمرض . فقد يحصل للصحيح مرض مثل الذي حصل للمريض الذي قاربه أو خالطه ، فحدوث المرض بقدَر الله ، ولم يحدث لذات العدوى ، وإنما جعل الله القرب والمخالطة سبباً ظاهراً للمرض ، لا سبباً مستلزماً للمسبب .

وهناك حديث يقول : أن أعرابياً قال للرسول : يا رسول الله ، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها ؟ فقال له : فما أجرب الأول ؟ لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كلّ نفس ، وكتب حياتها ومصابها . .

وفي ظاهر الأمر تجد المعارضة بين الأحاديث التي وردت في شأن العدوى (لا عدوى) وتندفع هذه المعارضة الظاهرية بأن الشارع يفسح المجال للمكلف بأن يراعي الأسباب الظاهرة ويتجنبها ، شفقة عليه من أن يقع في قلبه ما ينهى عنه الشارع ويحتاج في دفعه إلى مجاهدة نفس . .

ويمكننا الجمع بين الأحاديث الصحاح التي ينفي بعضها العدوى ، ويحث بعضها على الاحتياط . فان المراد منها أنه لا يعدي شيء شيئاً بقوة ذاتية فيه ، بل بقدرة الله وتأثيره . لأن المرض ليست له قوة ذاتية تمكنه من أن يُعدي باختياره ، وإنما الأمر راجع إلى الله سبحانه ، فهو القادر على أن يسلب هذه الأمراض قوة العدوى الكامنة فيها .

فلا يمكن نفي العدوى مطلقاً ، لأن هذا يصادم الحس والطب ، ولكن وقوع العدوى خاضع لقدرة الله وقضائه .

فالإشارة الى نفي العدوى في الحديث (لا عدوى) قد يقصد منه نفي الضعف عند رؤ ية المريض أو القرب منه ، حتى يستشعر السليم حصانة نفسية وقوة روحية في تلك الحال . ومن مرت به الحياة في تصرفاتها على الإيمان المؤ يد باليقين ، أدرك أن الشريعة أعطت لكل من الفريقين حكماً يناسبه ، ويليق بحالته ، فهما مقامان : مقام التوكل ، ومقام مراعاة الأسباب الظاهرة ثم قال الرسول ﷺ : (ولا طيرة) :

والطيرة : بكسر الطاء وفتح الباء وقد تسكن ـ هي مصدر تَطَيَّرَ ، من التطيرّ ، وهو التشاؤم بالشيء ، وقيل : الطيرة ما يتشاءم به من الفأل الرديء . يقال : تطير به وتطير منه ، وطار طيره ! أي غضب وجاء في (القاموس المحيط) : (والطِيَرة والطُّورة ما يتشاءم به من الفأل الرديء ، وتطير به ومنه) .

وجاء في (مفردات القرآن) للراغب الأصفهاني : (وتطير فلان أو طير : أصله التفاؤ ل بالطير ، ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم) .

ومرادفه التشاؤم ، جاء في القاموس : (. . . والشؤم ضد اليمن . والأشائم ضد الأيامن . . وقد تشاءموا به ، وطائر أشأم : جارٍ بالشؤم) .

وضد التطير التفاؤل والتيمن ، جاء في القاموس : (الفأل ضد الطيرة ، كأن يسمع مريض : يا سالم ، أو طالب : يا واجد ، أو يستعمل في الخير والشر ، وجمعه فؤول وأفؤل) .

وجاء في أساس البلاغة : (تفأّل به وتفاءل ، وفي الحديث : أحسن الطيرة الفأل ، وهو أن يسمع الكلمة الطيبة فيتيمن بها ، وتقول العرب : الأفأل عليك ، وتقول : دون الغيب أقفال ، لا يفتحها الزجر والفال) .

وفي (النهاية) لإبن الأثير أنه قيل لرسول الله ﷺ ما الفأل ؟ فقال الكلمة الطيبة . وفي القرآن الكريم : (إن تصبهم سيئة يطيّروا) ، أي يتشاءموا ، وفيه أيضاً (إنما طائرهم عند الله) أي شؤمهم وقد أعد الله لهم بسوء أعمالهم . و فيه كذلك (اطيرنا بك وبمن معك) أي تشاءمنا .

وجاء في الحديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يكره الطيرة ويحب الفأل ، والفأل هو الاستبشار .

فقد جاء انه صلوات الله وسلامه عليه يقول : (وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أملوا فائدة الله تعالى ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوى فهم على خير ، ولو غلطوا في جهة الرجاء ، فإن الرجاء لهم خير ، وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر . وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء) . .

وقد أخذ العرب كلمة (الطيرة) من اعتمادهم في تفاؤلهم وتشاؤمهم على الطير ، فكانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح من الطيور والظباء وغيرها . فإذا خرج أحدهم لأمر ما ورأى الطير طائراً على جهة اليمين ، تيمن به ، وذهب لأمره ، وإذا طار على جهة اليسار ، تشاءم به ورجع ، وكانوا يسمون ما طار إلى جهة اليمين بالسانح ، وما طار إلى جهة اليسار بالبارح . فالسانح ما ولاّك ميامنه ، بأن يمر عن يسارك إلى يمينك ، والبارح ما يكون على خلافه ؛ وكانوا يتيمّنون بالسانح ، ويتشاءمون بالبارح . ومن أمثلتهم : (مَنْ لي بالسانح بعد البارح) . . .

فكانوا إذا هموا بأمر من أمور العمل أو الحرب أو المسالمة أو غيرها زجروا الطير وأطاروها من أوكارها وأعشاشها ، فإن اتجهت الطير يميناً استبشروا وأقدموا على ما أرادوا من عمل ، وإن اتجهت شمالاً تشاءموا ، وأحجموا عن الإقدام على ما هموا به من أعمال .

والواقع أنه ليس في شيء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضي اعتقادهم هذا ، وإنما هو تكلف منهم بتعاطي ما لا أصل له ، ولا معوّل عليه ، وقد جاء الشرع برده وتفنيده .

وقال الرسول ﷺ : (من رجعته الطيرة عن حاجاته فقد أشرك ، قالوا : وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال : أن يقول : اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، ثم يمضي لحاجته) . وقال عكرمة كنت عند ابن عباس رضي الله عنهم ، فمر طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير . فقال ابن عباس : ما عند هذا لا خير ولا شر . وقال الرسول ﷺ في ذلك : (ليس منا من تحلّم (أي ادعى الرؤيا) او تكهن ، أو ردّه عن سفره تطير) .

ولقد كان العرب يتشاءمون من البوم والغربان ، وسموه (غراب البين) ويتشاءمون من الثور المكسور القرن . كما تشاءموا من بعض الكلمات التي تدل على معان غير مرضية . وكانوا يتشاءمون من سماع العطاس في الصباح ، ولذلك كانوا يبكرون إلى أعمالهم قبل أن يسمعوا عطاساً فيتشاءموا منه ، ومن شعر امرىء القيس في نحو هذا :

وقد اغتدى قبل العطاس بهيكل شديد منيع الجنب فعم المنطق

وقال رؤبة يصف صحراء : (قطعتها ولا أهاب العطاس) . . وكان الواحد منهم إذا سمع عطاساً من غيره قال له : (بك لا بي ، أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لا بي) .

فجاء الإسلام فنهى عن ذلك ، وأرشد الإنسان الى أن يدعو للعاطس بالرحمة ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب) .

ولقد أشرق الإسلام بنوره وعالج التطير والتشاؤم ضمن ما عالجه من أمور . ولقد جاء ذكر التطير في القرآن في عدة مواضع . يقول الله تبارك وتعالى في شأن قوم

موسى عليه السلام الذين كذبوه وكفروا برسالته : (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ، ألا إن طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) ، أي اذا جاءهم الخصب والرخاء والسعة قالوا : هذا لنا وهو مختص بنا ونحن أهلوه ، وإن يصيبهم قحط أو مرض يتشاءموا بموسى ومن تبعه ، وذلك نظير قوله تعالى في موقف الكفار من محمد ﷺ (وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) .

ومعنى : (إنما طائرهم عند الله) أي ما قدر لهم أو عليهم عند ربهم ، لأن الطائر من معانيه في اللغة الحظ وعمل الإنسان ، (ولكن اكثرهم لا يعلمون) أن ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله بذنوبهم ، لا من عند موسى وقومه .

فأنت ترى هنا أن التطير قد ذكر منسوباً الى كفرة مكذبين ، وكانت عاقبتهم خسراً ووبالاً وإهلاكاً وعذاباً . وكانت كذلك ميراثاً كريماً للمؤمنين الذين لا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون . ويقول القرآن الكريم في ذلك (قالوا اطيرنا بك وبمن معك ، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) . . هذا قول قوم ثمود لنبيهم صالح عليه السلام حين كفروا برسالته وكذبوه في دعوته ، أي تشاءمنا بك وبمن آمن معك (قال طائركم عند الله) ، أي سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله ، وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء الله حرمكم ، ويجوز أن يريد : عملكم مكتوب عند الله ، فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة .

وقد وردت كلمة (طائر) بهذا المعنى في قوله تعالى : (وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا) .

وجاء أن المراد بالطائر عمله ، من قولك : طار له سهم إذا خرج ؛ يعني الزمناه ما طار من عمله ، فعمله لازم له لزوم القلادة للعنق لا تفك عنه كما قال الزمخشري ، وقال البيضاوي : (عمله وما قدر له ، كأنه طير إليه من عش الغيب ، ووكر القدر ، لما كان يتيمنون ويتشاءمون بسنوح الطائر وبروحه ، استعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله وعمل العبد) .

والنتيجة في آية النمل هي النتيجة ايضاً ، إهلاك وتعذيب للمتطيرين ، ونجاة وتكريم وميراث خير للمؤمنين المتقين الواثقين . . يقول الله تعالى بعد آية النمل التي

جاء فيها ذكر التطير : (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعملون ، وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

ويقول الله تبارك وتعالى : (قالوا : إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ، قالوا طائركم معكم ،أئن ذكرتم ، بل أنتم قوم مسرفون) . نزلت هذه الآية ، في شأن أهل (أنطاكية) الذين كذبوا الرسل مرة بعد أخرى ، وكفروا بدعوتهم ، فقالوا لأولئك الرسل : إنا تطيرنا بكم وتشاءمنا منكم ، وكانوا في ضلالهم وغيهم مسرفين .

فماذا كانت العاقبة ؟ كانت هلاكاً وتعذيباً للكافرين المتطيرين ، ونجاة وفوزاً للمؤمنين . يقول الله تعالى بعد ذلك عن الرجل المؤمن الذي جاء يسعى داعياً قومه أهل القرية إلى الإيمان وهو (حبيب النجار) : (قيل ادخل الجنة ، قال : يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) . ولا شك ان دخول الجنة أعظم ميراث .

ثم يقول أيضاً عن المكذبين الكافرين المتطيرين : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) .

أفرأيت العاقبة الوخيمة ؟ والنهاية الأليمة للمتطيرين المكذبين !! ومن مظاهر تنفير القرآن الكريم من التطير والتشاؤم أنه اختار للمفلحين الناجين وصفاً من مادة التيمن وهو التفاؤل ، واختار للمجرمين الخاسرين وصفاً من التشاؤم وهو التطير ، فقال سبحانه : (فاصحاب الميمنة ، ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) . أي أصحاب المنزلة السنية الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم واصحاب المشأمة الذين يؤتونها بشمائلهم ، أو أصحاب اليمن والشؤم ، فان السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم ، والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم) .

فأنت ترى أيضاً أن القرآن قد جعل التشاؤم من صفات الضالين الفاسقين المعذبين ، وجعل اليمن من صفات المؤمنين المتقين ، وقد عاد القرآن فذكر صريحاً في قوله : (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) .

أليس ذلك الحديث القرآني عن بلوى التطير كافياً لصرف الناس عن الاستسلام

الى أوهام التشاؤم ، ومحرضاً لهم على التوجه إلى الله والاهتداء بهداه والحرص على رضاه .

وقد ورد في النهي عن (الطِّيرة) جملة أحاديث منها ما رواه ابن حبان عن أنس أن النبي ﷺ قال : (لا طيرة ، والطيرة على من تطير) . وأخرج ابن عدي عن عبدالرحمن بن صخر مرفوعاً : (إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا) .

وعن ابي الدرداء : (لن ينال الدرجات العلى من تكهن ، أو استقسم أو رجع من سفر تطيراً)

وروى عن النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً : (ليس منا من تطير أو تُطير له) . . . وروى انه كان لا يتطير من شيء .

ودعا الإسلام في هذا المجال الى التفاؤل والاستبشار وتوقع الخير ، ولذلك روت السنة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، وكان يقول : (لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل الصالح) ويقول : (حسن الظن بالله من حسن العبادة) . وقال : (بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا) . . .

والقرآن الكريم قد أشار في أكثر من موطن إلى الأثر الطيب للتفاؤل والاستبشار ، فقال عن والد يوسف عليهما السلام : (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً) وبشرت الملائكة إبراهيم بالولد وهو طاعن في السن ، ولما قال : (أبشرتموني على ان مسني الكبر فبم تبشرون ؟ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ، قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) ؟ وقد روى ابن ابي الحديد في شرحه كتاب (نهج البلاغة) عن الإمام قوله : [الفأل حق ، والطيرة ليست بحق ، والعدوى ليست بحق] . .

وقد أشار الرسول ﷺ إلى علاج الطيرة حين قال : (من عرض له من هذه الطيرة شيء قليل فليقل : (اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

وفي رواية أن النبي ﷺ حينما سئل عن هذه الأمور قال : (أحسنها الفأل ، ولا يردُّ قدراً ، ولكن إذا رأى أحدكم ما يكره يقول : (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ؛

ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

وقال في حديث آخر : (إذا ظننتم فلا تحققوا ، وإذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا) .

وقال أيضاً : تفاءلوا ولا تطيروا) .

وحينما سئل عليه الصلاة والسلام عن الفأل الصالح الذي يحبه أجاب : الكلمة الطيبة .

وحينا أشار النبي ﷺ إلى تعرض كل إنسان في بعض الأحيان لمثل هذه الأمور بقوله : (ثلاث لا يسلم أحد منهن : الطيرة والحسد والظن) ، قيل له : فما نصنع ؟ قال : إذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق) .

فينبغي لمن وقع له شيء من ذلك ألا يعبأ به ، وألا يعول عليه ، وأن يتوكل على الله ويسلم الأمر كله اليه ، فإنه ان فعل ذلك أذهب الله عنه تطيّره ، ولم يؤاخذه بما عرض له منه .

وقد شدّد الرسول عليه الصلاة والسلام النكير على التطير حين قال : الطيرة شرك ، وما منّا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل ، وتقدير ذلك هو : إلا وقد يعتريه التطير ، وتسبق إلى قلبه الكراهة ، فحذف اختصاراً واعتماداً على فهم السامع ، ويقال : إن (وما منا إلا) من قول ابن مسعود أدرجه في الحديث[1]

وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعاً أو يدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبه ، فكأنهم أشركوه مع الله في ذلك ، وقوله (ولكن يذهبه التوكل) معناه أنه إذا خطر له عارض التطير فتوكل على الله وسلم إليه ، ولم يعمل بذلك الخاطر ، غفره الله له ولم يؤاخذه به ، وليس وراء ذلك خبرة بالنفس البشرية ، ولا براعة في علاج وساوسها وأوهامها . .

فالعلاج في نظر الاسلام يتلخص في أمرين :

الأول : قوة الارادة ، والإصرار على المضي في الغاية المنشودة ، ومتى عود

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٧/ ٢٦٦ وجاء في بعض الروايات : (وما منا إلا من تطير) .

الانسان نفسه المضي بالرغم مما يلاحظه من التطير ، نمى إرادته وهذا نفسه هو ما يدعو إليه علماء النفس المحدثون فليس أمام الإنسان من سبيل إذا أراد التخلص من عادة سيئة أو من بعض العواطف الضارة ، إلا الإرادة الحازمة الصارمة التي لا تعرف التقهقر .

الثاني : سلامة العقيدة ، وتخليصها من الشوائب ، فلو أدرك الإنسان بحق أنه لا خير إلا من الله ، ولا شيء إلا ما أراده ، وأنه لا يعلم الغيب غيره ، لرأى أن هذه الأمور التي يرتكبها من يتشاءم ، هي حماقات وتوافه .

قوة الإرادة وسلامة العقيدة هما المنجيان من كل ما يخضع له الإنسان من مخزيات ، ولن تجد متشائماً إلا وهو يحمل قلباً عليه سحب كثيفة من الاعتماد على غير الله تعالى .

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام : (ولا هَامة) :

والمشهور ان كلمة (هامة) بفتح الميم ، ولكن أبا زيد قال إنها مشددة الميم : (هامَّة) وقال أبو عبيدة عن ذلك : (ما أرى أبا زيد حفظ هذا) .

والهامة هي رأس كل شيء ، وجمعها هام ، وهي طائر من طيور الليل ، وهو (الصَّدى) ، كما ذكر القاموس المحيط ، وجاء في النهاية أن الهامة هي التي كانوا يزعمون أنها في الأصل عظام الميت ، تصير هامة ثم تطير من قبره . .

ومن مدلولات الهامة أيضاً ذوات السموم ، ودَوَابّ الأرض التي تهم بإيذاء الناس ، وقيل : إن الهامة هي الطير المعروف باسم (البومة) وهو يطير بالليل ، وقال ابن الأعرابي : إن العرب كانوا يتشاءمون إذا وقف هذا الطائر على باب أحدهم ، حيث يتوهم أن ينعي إليه نفسه ، أو أحد أحبائه ، أو ماله ، أو ما شاكل ذلك . . . فكانوا إذا وقفت على بيت احدهم ، يقول : نَعَتْ إليّ نفسي ، أو أحداً من أهل داري .

وقيل : هي ما كانوا يزعمونه من أن الميت إذا مات ، صارت روحه هامة تطير ، أو أنهم يقولون إن القتيل إذا لم يؤخذ بثأره فإنه يخرج من رأسه طائر صغير يسمى (الهامة) وينادي هذا الطائر فوق قبر القتيل : اسقوني فاني صَيديّة (أي عطشى) . ويستشهد لذلك بقول ذي الإصبع :

يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقول الفقعسي :

له هامــة تدعــو إذا الليل جنَّها بنــي عامــر ، هل للهــلاليّ ثائر

بل زعموا أن كل ميت أو قتيل له هامة ، ولذلك قال قائلهم :

فيا رب إن أهلك ولــم ترو هامتي بليلى أمت لا قبر أعطش من قبري

وقال الآخر :

سلــط الموت والمنــون عليهم فلهــم في صدى المقابــر هام .

وذكر المسعودي في (مروج الذهب) انه كان من العرب من يزعم ان في النفس طائر ينبسط في الجسم ، فإذا مات الإنسان ، لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كالبوم ، وقيل : ان الهامـة هي أنثى البـوم ، فالانثى من البـوم تسمى (الهامـة) والـذكر يسمــى (الصدى) . وقيل : ان الهامة إحدى هوام الأرض .

وقيل : انها دودة تدور حول قبر القتيل ، وتقول (اسقوني اسقوني) فإن أخذوا بثأره انقطعت عن ذلك وذهبت ، وإلا بقيت .

وقولهم هذا شبيه باعتقاد أهل التناسخ في أن أرواح الموتـى تنتقل إلى أجسـاد حيوانات من غير بعث ولا نشور ، وهذه كلها أوهام فاسدة أبطلها الإسلام وكذّبها .

ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام : (ولا هامة) أنه لا يوجد شيء اسمه الهامة ، إذا فسرنا الهامة بأنه الكائـن الحي الـذي يخـرج عقـب القتـل ، ويصيح ويقـول : اسقوني ، اسقوني . وإذافسرنا الهامة بأنها (البومة) فالمعنى أن هذا الطائر لا دخل له في الأضرار أو جلب الشقاء .

ثم قال الحديث : (ولا صَفَر) :

ولفظ (الصفر) من الألفاظ المشتركة ، وقد أطلقوه على أكثر من شيء ، فقال البخاري : إن الصفر داء يأخذ البطن . ورجح الطبري هذا التفسير ، لأن الأعشى يقول في رثائة المنتشر بن وهب : (ولا يعض على شُرَ سوفة الصفر) . . وقيل : إنه

حية تصيب البطن ، ويقال لها « شجاع البطن » ولذلك يقول الشاعر : (وشجاع البطن يختنق) .

وقال آخر :

أردُّ شجاع البطن قد تعلمينه وأوثر غيري من عيالك بالطعم

وجاء في القاموس أن (الصفر) داء البطن يصفِّر الوجه ، وحية فيه تعض الضلوع والشراسيف[1] ، أو دود في البطن ، أو الجوع . وفي مفردات القرآن للأصفهاني : أن الصفر هو خلو الجوف والعروق من الغذاء ، ولما كانت تلك العروق الممتدة من الكبد الى المعدة إذا لم تجد غذاء امتصت أجزاء المعدة ، واعتقد جهلة العرب أن ذلك حية في البطن تعض بعض الشراسف . كما أن العرب كانت تعتقد أن هذه الحية تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه ، وأنها تُعْدي ، فنفى النبيﷺ ذلك بقوله : (ولا صفر) أي ليس في البطن ما يعتقدون أنه فيه ، وهو الحية .

وقيل : إن المراد بكلمة ولا (صفر) الشهر المسمى بصفر ، وقد سمي بهذا الاسم - كما قيل - لخلو بيوتهم فيه من الزاد ، وكانوا في الجاهلية يتبعون نظام (النسيء) المتعلق بالشهور المحرّم فيها القتال ، فكانوا يؤخرون شهر (المحرم) الذي يحرم فيه القتال الى شهر (صفر) ويتقاتلون في (المحرم) مع أنه شهر حرام عندهم . فأبطل الاسلام ذلك ، وقال القرآن الكريم : (إنما النسيء زيادة في الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زُيِّن لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين) . . وذلك عقب أن قال : (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) .

والشهور الأربعة الحرم هي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . وعلى هذا فالمراد بكلمة (صفر) في الحديث واحد من أمرين : إما ما كانوا يزعمونه من وجود حية في البطن تعض الانسان إذا جاع ، وإما ما كانوا يفعلونه من إحلالهم القتال في شهر المحرم ، وتأخير التحريم للقتال الى الشهر التالي وهو شهر صفر . وقد أبطل الإسلام

---

(١) الشراسيف : جمع شرسوف . وهو الضلع .

كل هذا ، لأن الأمر الأول من المزاعم الباطلة ، ولأن الأمر الثاني لون من ألوان المخادعة والاحتيال .

ونلاحظ هنا أن ابن أبي الحديد نقل عن أبي عبيدة قوله : (ولا صفر هو الشهر الذي بعد المحرم ، وهذا نهى عن تأخير المحرم إلى صفر ، وهو ما كانوا يفعلونه في النسيء) . ثم علق ابن أبي الحديد بقوله : (ولم يوافق أحد العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير) .

ومعنى هذا أن ابن ابي الحديد يرى أن المراد بالصفر هنا ما كانوا يزعمونه من وجود حية تعض الضلوع عند الجوع . ولكن ينبغي ان نلاحظ أن العرب كانوا في الغالب يجعلون النسيء ـ وهو التأخير في تحريم الشهور ـ من المحرم إلى صفر ، بسبب أن الشهور الثلاثة الأولى من الشهور الأربعة تأتي متتابعة ، وهي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . وأما رجب رابعها فيأتي منفصلاً منفرداً فكانوا يستطيلون البقاء ثلاثة شهور متتابعة بلا قتال . فكانوا يستحلون القتال في المحرم ، ويؤخرون المحرم إلى صفر .

ويروى أن أول من نشأ الشهور هو عمر بن لحي الخزاعي ، وقيل إنه القلمّس حذيفة بن فقيم بن عامر ، وقيل غير ذلك ، فكانت القبائل تستبيح القتال في المحرم ويجعلون مكانه شهراً آخر ، وقد تفاخر بذلك شاعرهم فقال :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراماً ؟

وقد أشار رسول الله ﷺ في خطبة الوداع إلى تحريم النسيء حيث قال : (ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ثلاثة متوالية : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان) وأضيف رجب إلى مضر لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه أكثر من غيرهم .

ومعنى استدارة الزمان في الحديث وعودة حساب الشهور إلى ما كان عليه ، بعد أن كان هذا الحساب قد تغير واضطرب ، بسبب نسيئهم وتغييرهم أسماء الشهور عند ذلك ، حيث كانوا يسمون الشهر المنسوء باسم الأصل .

وفي بعض روايات الحديث جاء قوله :(لا عدوى ولا صفر) ومن الممكن ان تفسر

الكلمتين مترابطتين على أساس ما كان يعتقده العرب من أن الصفر داء ينشأ من حية تصيب الماشية والناس ، وانها أعدى من الجرب ، فجاء الحديث لينفي العدوى الناشئة بزعمهم من وجود الصفر ، وحيث أنه لا توجد حية فلا توجد عدوى ناشئة عنها . . والبخاري يرجح هذا التفسير ، وعلله بكون الرواية عطفت بين العدوى والصفر وقرنت بينهما .

والحق ـ والله تعالى أعلم ـ ان المقصود بقوله ﷺ (ولا صفر) معطوفاً على قوله (ولا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر) . ان المراد هو نفي التشاؤم بهذا الشهر ، فقد روى انهم اسموه كذلك (صفر) لخلو بيوتهم فيه من الزاد ، وهذا من أسباب التشاؤم بهذا الشهر عندهم ، ولذا عمدوا إلى النسيء ـ كما ذكرنا . ولا زال الكثير من الأمم والشعوب تتشاءم بهذا الشهر فلا يعقدون فيه زواجاً ولا صفقة تجارية ، ولا يسافرون ، ويتوقعون حدوث كل مكروه بقدومه ، ويحتفلون بانتهائه فهو رمز التشاؤم ، وكأن بينه وبين الشر صهراً ونسباً . فجاء قوله عليه الصلاة والسلام (ولا صفر) نافياً هذه المزاعم والمعتقدات الفاسدة ، مبيناً أن الأيام والشهور كلها لله ، والله يقدر فيها ما يشاء ، يضر من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، فالأيام والشهور لا تأتي لا بخير ولا بشر ، فلا مدعاة إذن لهذا التشاؤم بيوم من الأيام أو شهر من الشهور ، ولا أدل على ما ذهبنا اليه من ورود الحديث كله على نفي التشاؤم ، والحض على التفاؤل والثقة بالله ، وتفويض الأمور كلها إليه .

ثم قال الحديث : (وفر من المجذوم فرارك من الأسد) .

والفرار : هو الروغان والهرب ، والجُذام ـ كما في القاموس ـ بوزن غراب ، علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله ، فيفسد مزاج الأعضاء وهيأتها وربما انتهى إلى تأكل الأعضاء وسقوطها عن تقرح . . وهو مرض شديد العدوى ، ويعد من الأوبئة الخطيرة التي يلزم تجنبها باحتراس .

والمعنى : ابتعد عن المصاب بمرض الجذام وتجنبه كما تتجنب الأسد الذي سيفترسك ، والأسد يضرب مثلاً للإخافة ، وللحمل على الفرار والهرب ، ولذلك جاء في القرآن الكريم قوله في تصوير شدة الفرار (فرت من قسورة) أي من أسد ، هذا ، وقد جاء في بعض روايات الحديث : (لا عدوى ولا هامة ولا صفر ولا غُول) . فجاءت كلمة (غُول) . والغيلان هي السعالي ، وهي كما يزعمون إناث الشياطين ، وذكر

الدميري في كتابه (حياة الحيوان) إن الغول بضم الغين ـ واحد الغيلان ـ وهو جنس من الجن والشياطين ، وهم سحرتهم ، ويضرب المثل بالغول في الهول .

ولذلك يقول امرؤ القيس :

أيقتلنــي والمشرفي مضاجعني ومسنونــه زرق كأنياب أغوال ؟

وسميت الغيلان بذلك لأنها تغتالهم بزعمهم ، أو لأنها تتلون كل وقت من قولهم : تغولت البلاد إذا اختلفت ، والتغول هو التلون ، وكانوا يزعمون أن الغول تتراءى لهم في الفلوات ، وتتلون لهم ثم تضلهم عن الطريق ، ولذلك قال كعب :

فما تدوم على حال تكون بها كما تلـوّنُ في أثوابهـا الغول

فأبطل النبي ﷺ زعمهم ذلك ، وقال (لا غول) ومعناه : لا غول تستطيع أن تضل أحداً وتهلكه . .

* * *

وهكذا نجد هذا الحديث الشريف قد أبطل طائفة من الأوهام والمزاعـم التـي كانت موجودة في الجاهلية ، ورفع الناس إلى طريق العقل والرشاد ليحيوا حياة سعيدة رشيدة عمادها التفكير السليم والإيمان العميق بالله جل جلاله ، كل هذا في أسلوب مشرق ، وكلمات جامعة مجتمعة هي آية البلاغة وعين الإعجاز ؟

الحـديث التـاسع

سـمات النفـاق

عن عبد الله بن عمرو عن النبيﷺ قال : (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقاً ، وَمَنْ كانَتْ فيه خَصْلَةٌ منهن كانت فيه خَصْلَةٌ من النِّفاقِ حتى يَدَعَها : إذا حَدَّث كَذَبَ ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ) أخرجه البخاري ومسلم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيﷺ قال : (آية المنافِق ثلاث : إذا حَدَّث كَذَبَ ، وإذا وَعَدَ أخلف ، وإذا اوْتُمِنَ خان) رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلـم : (وإن صلى وصام وزعم أنـه مسلـم) . وفي رواية : من علامات المنافق ثلاث) .

المعانـي والتصويـر

هـذا الحـديث الشريف من الأحـاديث المنـذرة التـي تخـوف المؤمـن معاطـب الطريق ، وتحذره من خبيث الخصال .

والناس لا يعرفون في تاريخ التصادم بين الحق والباطل ـ وهو فيما بينهم قديم قدم الشهوات والأهواء وتنازع الرغبات عنصراً يستر من الحق جلاله وان عظمت مادته ، ويصنع للباطل زبدة وإن وهنـت قوتـه ، أقـوى وأشـد من عنصر النفـاق ، يتصـل بالصفوف فيمزقها ، وبالقلوب فيفسدها ، وبالعزائم فيُضعفها ، ويلقي بظله الكثيف أمام المؤمنين المخلصين فيعوقهم عن التقدم والظفر . . .

وحركة النفاق تعتبر من أهم الأحداث والحركات المميزة للعهـد المدنـي ، ومـن أخطرها ولا أدل على خطورة النفاق والمنافقين أكثر من ذلك الحيز الكبير الذي شغله الحديث عنهم إذ بلغ عشر القرآن الكريم تقريباً . ونزول سورة بكاملها فيهم سميت باسمهم .

وقد روى أن المقصود بالمنافقين في هذا الحديث هم المنافقون على عهد الرسول

ﷺ ، لأنهم حدثوه فكذبوه ، وائتمنهم على سره فخانوه ، ووعدوا أن يخرجوا معه في الغزو ثم أخلفوه . . ومع هذا فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذا الحكم بالنفاق ينطبق على كل من يأتي هذه الخصال . وقال علماء اللغة إنما سمي المنافق منافقاً لإظهاره غير ما يضمر ، أو هو مخالفة الباطن للظاهر .

وكلمة (النفاق) تدل في الأصل على إخفاء الشيء وإغماضه ، ومنه النفق أو السرب في الأرض ، وسمي النفاق نفاقاً لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر ، فكأن الإيمان يخرج منه ، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء .

وقيل سمي المنافق منافقاً لإظهاره غير ما يضمر ، تشبيهاً باليربوع له جحر يقال له : النافقاء ، وآخر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخترق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب ، فإذا رابه ريب رفع ذلك التراب برأسه فخرج ، فظاهر جحره تراب ، وباطنه حفر ، وكذلك المنافق ظاهره إيمان ، وباطنه كفر . .

ولكن الزرقاني لا يرى ذلك ويقول : إن النفاق اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وهو فعل المنافق الذي يستر كفره بالإسلام كما يستر الرجل (بالنفق) فإن قيل إن النفاق اشتق من هذا ، وقيل من نافِقاءُ اليربوع[1] . وهي إحدى حجراته يكتمها ويظهر غيرها . وقيل من نافق اليربوع ونفق إذا دخل في قاصعائه وخرج من نافقائه ، وأنه بالعكس فإن لجحر اليربوع والنافقاء والقاصعاء والرهطاء والداماء .

وعلى كل حال فالظاهر أن الكلمة إسلامية بحتة ، وان أول من تكلم بها القرآن الكريم بمفهوم واضح يفهمه العربي بسليقته بمجرد سماعه .

وقال ابن كثير . (النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر . وقال ابن جريج المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه)

ومهما يكن من شيء فالنفاق هو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب ، وعلى ذلك نبه تعالى بقوله : (إن المنافقين هم الفاسقون) ، أي الخارجون من الشرع ، وجعل الله المنافقين شراً من الكافرين فقال : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) .

---

(١) نوع الفئران

والنفاق من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان غيره ، وهو ينقسم إلى قسمين : أحدهما : النفاق الأكبر : وهو أن يظهر الانسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه . وجزاؤه الدرك الأسفل من النار بدليل قوله تعالى (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) .

والثاني : النفاق الأصغر ، وهو نفاق العمل ، بأن يظهر علانية أعمالاً صالحة ويبطن ما يخالف ذلك ، وأصول هذا النفاق يرجع إلى الخصال المذكورة فى هذه الأحاديث ، وهو ما يعرف بالنفاق الاجتماعي ، وهو أخطر أنواعه وشر ضروبه .

فالمنافق يتظاهر بالصلاح ، وهو من الفاسدين ، ويلبس لباس المتقين وهو من الأشقياء المجرمين ، ويتزي بزي الأحباب الصادقين وهو من الأعداء الكاذبين ، ويرتدي رداء الغُير على الأمة ومصالحها وهو لا يغار إلا على أغراضه الشخصية ومنافعه المادية .

إن هذا المنافق المتلون أشد ضرراً على الأمة من عدوها الظاهر ، لأنه يستطيع أن يغش بمظاهره الخداعة وتمويهاته الخلابة بما يتظاهر به من الخير وهو يبطن غيره ، فتراه حلو اللسان عذب البيان كما قال تعالى في وصف المنافقين : (وَمِنَ الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام) وقال : (وإذا رأيتهم تعجبُك أجسامُهم وإن يقولوا تسمع لقولهم) .

فالنفاق الأصغر هو إظهار الإنسان غير حقيقته في الصلاح والعمل ، ولذلك قال الحسن : (من النفاق اختلاف القلب واللسان ، واختلاف السر والعلانية ، واختلاف الدخول والخروج ، ولقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يخافون النفاق أشد الخوف ، ويخشونه خشية شديدة أن يلم بساحتهم من قرب أو بعد ، ولذلك روى عن حنظلة الأسدي أنه مر به أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي ، فقال له : ما لك ؟ فأجاب : نافق حنظلة : نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنها رأى العين ، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والصبية فنسينا كثيراً . قال أبو بكر : فوالله أنا كذلك . فانطلقا إلى رسول الله ﷺ فقال : ما لك يا حنظلة ؟ قال : نافق حنظلة يا رسول الله ؛ وذكر له مثل ما قال لأبي بكر ، فقال رسول الله : لو تدومون على الحال

التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم ، ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة !!

وروى عن أنس قال : قالوا : يا رسول الله . إنا نكون عندك على حال فإذا فارقناك كنا على غيره . قال : كيف أنتم ؟ قالوا : الله ربنا في السر والعلانية قال : ليس ذاكم النفاق !!

وقد أشار الكتاب والسنة إلى سمات المنافقين وخصالهم ، وبينّ القرآن الكريم بواعث النفاق النفسية وسماته الخلقية .

فمن بواعثه النفسية : الجبن ، فهو أول دافع للمنافقين وأكبر حافز للمداهن ؛ فإن المنافق إنما يستتر بالنفاق لعقاب يتوهمه ، أو ضرر يخشاه . .

وقد تفنن القرآن الكريم في وصف المنافقين بالجبن وفي تصوير خوفهم وهلع قلوبهم ، فقال تعالى : (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينُهم كالذي يُغشى عليه من الموت) وقال تعالى : (فإذا أُنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال ، ورأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشّي عليه من الموت) و قال تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم) .

ومن البواعث النفسية : الأنانية وحب النفس ، قال تعالى : (ومنهم من يَلْمِزُكَ في الصدقات فإن أُعْطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يسخطون)

وقال تعالى : (ما كان لأهل المدينةومن حولهم من الأعراب أن يتخلفواعن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) .

ومن البواعث النفسية أيضاً : الحقد والحسد ، قال تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) .

أما سمات المنافقين وخصالهم فهي : الكذب والغدر ، والخيانة ، وعدم الحياء وحب الضرر والأذى ، والوقاحة وسلاطة اللسان .

على أن الحديث الذي نحن بصدد شرحه قد أرجع أصول النفاق إلى أربع خصال فقد بينّ الرسول ﷺ أن من وجدت فيه أربع خصال كان منافقاً خالصا ومن وجد فيه بعضها كان لديه من النفاق بقدر ما وجد فيه ، وتلك الخصال هي خيانة الأمانة والكذب

في الحديث ، والغدر في المعاهدة ، والفجور في المخاصمة .

ورسول الله ﷺ يقول : (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً) ، أي استحوذ عليه النفاق وكبرت مصيبته به ، ثم يقول : (ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها) أي أنه يكون قد فتح على نفسه باب الاصابة بهذه الآفة الخبيثة ، ومن ثم يكون عرضة للإصابة ، ببقية أجزائها فتتم النكبة ، فواجبه أن يسارع إلى ترك هذه الخصلة حتى يحفظ لنفسه إسلامها وإيمانها .

وتأمل كيف استهل الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الحديث ببراعة متناهية حيث قرر أن ثمة خصالاً إذا هي اجتمعت في شخص فقد حقت عليه اللعنة وحلت به المصيبة ، والكبيرة الموبقة والجريمة المردية ، التي لا تصدر عن مؤمن ملأ الايمان قلبه .

وليس معنى قوله ﷺ : (اربع من كن فيه . .) الخ أنه قصر النفاق على هذه الخصال الأربع ، فإن للنفاق والمنافقين الكثير من الصفات والسمات غيرها بدليل قوله في الرواية الأخرى التي ذكرناها (آية المنافق ثلاث) . . وتعددت الروايات في ذكر خصائص وخصال المنافقين ، فليس المقصود إنه ذكر هذه الخصال على سبيل الحصر والقصر ، فهناك العديد من الأحاديث النبوية الشريفة تبدأ بعبارة : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان) وقوله ﷺ : (ثلاثة يحبهم الله . .) ، وهناك أحاديث تبدأ بالعدد (سبعة) في قوله (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله) وقوله : (خمس خصال من الفطرة) وليست هذه الأعداد : (ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، سبعة) مقصودة لذاتها ، وإنما المقصود الأعظم هو إثارة انتباه السامع والقارىء وتشويقه إلى معرفة ما سيذكر بعدها ، حتى يفتح قلبه وعقله لما سيلقى عليه .

فليس الغرض من ذكر هذه الخصال حصر آيات النفاق فيها فإنها كثيرة ، وإنما الغرض التنبيه إلى أصولها إذ التدين ينحصر أصله في ثلاثة : القول والعمل والنية ، فنبّه إلى فساد القول بالكذب وإلى فساد العمل بالخيانة ، وإلى فساد النية بالإخلاف لأن الإخلاف القادح ما كان العزم عليه مقارناً للوعد . . . فتقديم المسند إليه (أربع) في هذا الحديث يدفع إلى التشويق واللذة وترقب الفائدة وامتلاك ناصية الفؤاد التي يدفع إليها إبهامه .

وكلمة (أربع) مبتدأ وجاز الابتداء به مع أنه نكرة لأن تنوينه عوض عن المضاف

إليه ، والتقدير : أربع خصال . ومن : اسم موصول مبتدأ ثان ، وكُنّ فيه : صلة الموصول ، وكان : تامة ونون النسوة فاعلها وقوله (كان منافقاً) خبر . .

ومن الأسرار البلاغية لهذا الحديث الشريف الايجاز في (الأربع) بحذف المضاف إليه ، ثم تأمل هذا الأسلوب التقريري الذي يحمل في ثناياه دعوة قوية إلى كل إنسان أن يحرص كل الحرص على اجتناب جرثومة النفاق والمنافقين ، وإلا فأي أسلوب من أساليب الدعوة يعدل في قوته هذا الأسلوب الذي يقول في إجمال (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً) .

فهذا المطلع القوي الحاسم ، يثير النفس ، ويملأها رهبة من النفاق ، ورغبة في الايمان ، فقوله (خالصاً) كلمة مثيرة للغاية ، إذ شاركت ، مع هذا المطلع في إثارة السامع وشد انتباهه وتشويقه غاية التشويق لما سيتلى عليه .

فالخالص في اللغة كالصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شَوْبُهُ بعد أن كان فيه ، والصّافي قد يقالُ لما لا شَوْبَ فيه ، ويقال : خلّصتُهُ فَخَلَصَ ، ويقال : هذا خالِصٌ وخالصة نحو داهية وراوية . ومنه قوله تعالى : (فلما استيّأسُوا منه خَلَصُوا نجيا) أي انفردوا خالصين عن غيرهم . فمعنى قوله : (كان منافقا خالصاً) أي كامل النفاق ليس في قلبه مثقال ذرة من إيمان . ثم يأتي بعد هذا التفصيل للإجمال والإيضاح بعد الإبهام مما يبعث في القلب راحة ولذة وطمأنينة ، وفي النفس شوقاً واستعداداً وتهيأ كاملاً للفهم والاستيعاب .

وأما قوله : (فمن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها) والخصلة في الأصل هي القطعة من الشيء ثم اطلقت على الصفة من الصفات . فيقال : فيه خصلة حسنة أو خصلة سيئة .

والمراد بالخصلة في الحديث شعبة من شعب النفاق ، وجزء أو حالة من حالاته . ويفصل الحديث هذا الإجمال ، ويذكر خصال النفاق وسمات المنافقين ، فيذكر هذه الخصال مرتبة كالآتي :

الخصلة الأولى : (إذا حدث كذب) وهذه الخصلة على وجازة لفظها قانون كامل تجتمع فيه كل أنواع الرذائل الخلقية والموبقات والمنكرات . والصدق في الحديث سمة الرجل المؤمن ، وصفة المسلم المستقيم ، والكذب خلق ذميم يدل على دناءة

النفس وحقارة الذات . وقد ورد في الحديث : (كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هولك مصدق وأنت به كاذب) ، والانسان المنحرف يستبيح لنفسه أن يكذب كذبة فتجره إلى أخت لها وثالثة ورابعة حتى يطبع نفسه بطابع الكذاب المنافق الأثيم .

فالكذب في الحديث هو أس النفـاق والقاضي على الأخلاق ، وهو داع لاحتقار صاحبه . وعدم الثقة به في شأن من الشئون . قال النبيﷺ : (إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهـدي إلى النـار ، ومـا زال العبـد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّابا) رواه البخاري ومسلم .

والأحاديث في ذم الكذب والترهيب منه أكثر من أن يؤ تي عليها . ومن أشدها أن سائلاً يسأل رسول اللهﷺ : (هل يزني المؤ من ؟ قال : (قد يكون ذلك ، قال يا نبيٍّ الله هل يكذب المؤ من ؟ قال : لا ، ثم اتبعها بقوله تعالى : إنما يفتري الكذب الذين لا يؤ منون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون) .

ومن هنا فقد بدأ الحديث بذكر الكذب على أساس أنه أُس الرذائل جميعها ، وكان يقال : أُس النفاق الذي بنى عليه الكذب .

ثم ذكر الحديث الخصلة الثانية المتفرعة عن الخصلة الأولى فقال : (وإذا وعد أخلف) وخلف الوعود أو نقص العهود والغدر بها من أبوات الكذب ، وقد رتب الله تعالى عليه نفاق القلوب قوله : (فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون) .

وكلمة (وعد) تستعمل في الخير والشر إذا ذكر الفعل ، يقال : وعدته خيراً ووعدته شرا ، فإذا اسقط قالوا في الخير : وعدته ، وفي الشر : أوعدته .

وحكى ابن الأعرابي في نوادره : أوعدته خيراً ؟ !

فالمراد بالوعد في الحديث الوعد بالخير ، وأما الشر فيستحب إخلافه وقد يجب ما لم يترتب على ترك انفاذه مفسدة . .

ومعنى (إذا وعد أخلف) : أي لا يفي بما يعطى من عهود ، وهذا يكون بأن يعد وهو ينوي في نفسه ألا يفي ، وهذا هو أخبث ألوان الخلف في الوعد ، وهو في هذه الحالة جريمة كبرى إذا كان العزم عليه مقارناً للوعد ، فإذاكان عزماً على الوفاء ساعة

وعد ولكن عرض له ما حال دون الوفاء ، لم يكن من أهل النفاق ، فإن كان الوفاء في إمكانه وتركه فعليه إثم الاخلاف وإن كان قبل عازماً على الوفاء .

فالوعد على نوعين :

أحدهما : أن يعد ومن نيته ألا يوفي بوعده ، وهذا أشر الخلق ، ولو قال : أفعل كذا إن شاء الله تعالى وعن نيته لا يفعل كان كذباً وخلفاً ، قاله الأوزاعي .

الثاني : أن يعد ومن نيته أن يفي ثم يبلو له فيخلف من غير عذر له في الخلف .

وخرج أبو داود والترمذي من حديث زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال : (إذا وعد الرجل ونوى أن يفي به فلم يف فلا جناح عليه) .

وخرج الاسماعيلي وغيره من حديث سلمان أن علياً لقي أبا بكر وعمر رضي الله عنهم فقال : ما لي أراكما ثقلين قالا : حديث سمعناه من النبي ﷺ ذكر خلال المنافق(إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان) فأينا ينجو من هذه الخصال ؟ فدخل عليّ رضي الله عنه على النبي ﷺ فذكر له ، فقال : حدثتهما ولم أضعه على الموضع الذي تضعونه ، ولكن المنافق إذا حدث وهو يحدث نفسه أن يكذب وإذا وعد وهو يحدث نفسه أن يخلف ، وإذا ائتمن وهو يحدث نفسه أن يخون) . .

والوفاء بالوعد يجب أن يكون مع الجميع : مع الصغير والكبير ، ومع القريب والبعيد ، ومع الصديق والعدو ، ولذلك قال أبو هريرة : (من قال لصبي : تعال هاك تمرا ، ثم لم يعطيه شيئا فهي كذبة) وجاء في حديث ابن مسعود : (لا يعد أحدهم صبية ثم لا ينجز له) .

والخصلة الثالثة المتفرعة عن الخصلة الأولى : (وإذا خاصم فجر) .

والفجور هو الانبعاث والتفتح في المعاصي ، والفاجر هو المنبعث في الآثام والمحارم ، وكل مائل عن الحق يسمى فاجراً ، (وأيام الفجار) هي أيام العرب في الجاهلية استحلوا فيها الحرمات . .

والفجور هنا هو أن يتعمد الخروج عن الحق حتى يصير الحق باطلاً ، والباطل حقا . . وتعود الكذب هو الذي يؤدي إلى الفجور في الخصومة ، ولذلك قال الرسول

صلى الله عليه وسلم : (إياكم والكذب ، فان الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي الى النار) .

ومن أسوأ العادات المبالغة في الخصومة والإسراف في العداوة ، ولذلك قال النبي ﷺ : (إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم) وقال ﷺ : (إنكم لتختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه ، إنما أقطع له قطعة من النار) .

وقال ﷺ : (إن من البيان لسحرا) ، فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة سواء كانت خصومة في الدين أو في الدنيا على أن ينتصر للباطل ويخيل للسامع أنه حقّ ويوهن الحق ويخرجه في صورة الباطل كان ذلك من أقبح المحرمات وأخبث خصال النفاق .

وفي سنن أبي داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : (من خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع) وفي رواية له أيضاً (ومن أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله) .

فالفجور في المخاصمة وعدم الوقوف عند الحق وزر كبير يجر إلى أوزار كثيرة ، ومفاسد عظيمة ، فالفاجر في الخصومة ينكر حق صاحبه ويستحيل ماله وعرضه ، ولا يترك باباً من أبواب الإضرار به إلا اقتحمه ، ولو أضاع في سبيل ذلك المال الكثير ، بل ولو شغله ذلك عن القيام بواجباته .

فالفجور في الخصومة داء وبيل ، يقطع الأواصر ، وينشر الجرائم ، ويفتك بالأخلاق فلا جرم أن كان آية من الآيات في النفاق . .

وتأمل دقته وتوفيقه ﷺ في اختيار كلماته المعبرة عن معانيها أبدع تعبير .

فأصل معنى الفجور في اللغة شق ستر الديانة ، يقال فجر فجوراً هو فاجر وجمعه فجار وفجرة قال تعالى : (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) (أولئك هم الكفرة الفجرة) وقوله : (بل يريد الانسان ليفجر أمامه) أي يريد الحياة ليتعاطى الفجور فيها . وقيل معناه ليندب فيها . وقيل معناه : يذنب ويقول غداً أتوب ثم لا يفعل فيكون ذلك فجوراً لبذله عهداً لا يفي به .

وسمي الكاذب فاجراً لكون الكذب بعض الفجور . وقولهم : وَنَخْلَعُ ونترُكُ من يفجُرُك ، أي من يكذبك وقيل : من يتباعد عنك .

فالفجور هو الميل عن الحق والاحتيال في رده ، وأصله من الفجر وهو شقّ الشيء شقاً واسعاً .

وأنت ترى معي روعة التصوير وجمال التعبير التي ترسمها كلمتان فحسب ، وهما كلمة (خاصم) وكلمة (فجر) وقد عرفنا المقصود بالفجور والمادة التي اشتق منها . أما المخاصمة فهي المنازعة أصلها من خصم الشيء إلى جانبه وناحيته فكل من المتخاصمين في جهة . فكأنك ترى معركة بين متصارعين كل يحاول الاستيلاء على خصمه بقوة عضلاته ومهارته وقدرته ، حتى يحصل على الغلب والنصر ، ولا يعنيه كيف انتصر ، وبأية وسيلة حصل على ذلك ، وكذلك حال المنافق الفاجر فانه لا يعنيه إلا الانتصار إلى نفسه ولو بالحيف وظلم خصمه !!

ثم ذكر الحديث بعد ذلك الخصلة الرابعة من خصال المنافقين فقال : (وإذا عاهد غدر) .

والعهد : هو الموثق الذي يأخذه الإنسان على نفسه . وكل موثق يلزم مراعاته يسمى عهداً .

فالعهد هو حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال . قال تعالى : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) ، أي أوفوا بحفظ الأيمان . وعَهِدَ فلان إلى فلان يعهد أي ألقي إليه العهد وأوصاه بحفظه . وعهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا ، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب والسنة على ألسنة رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنُّذور وما يجري مجراها .

وباعتبار الحفظ قيل للوثيقة بين المتعاقدين عُهْدَةٌ ، وقولهم في هذا الأمر عُهْدَة لما أمر به أن يستوثق منه ، وللتفقد قيل للمطر عَهْدٌ ، وعِهادٌ ، وروضة معهودة . أصابها العِهادُ .

أما الغدر فهو نقض العهد وترك الوفاء به . وهو الإخلال بالشيء وتركه . وقد يقال لترك العهد وعنه قيل : فلان غادر وجمعه غَدَرَةٌ ، وغدّار كثير الغدر . وغادرة تركه قال تعالى : (لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها) وقال : (فلم نغادر منهم أحداً)

وغَدَرَت الشاةُ تخلّفت فهي غَدِرَةٌ .

وقد حث القرآن الكريم حثاً قوياً بادياً على الوفاء بالعهد ، وجعله صفة الأخيار الأبرار فقال : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) وقال (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) وفي الحديث : (حسن العهد من الإيمان) أي الحفاظ عليه ورعايته .

وجاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيﷺ قالَ : (لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به) . وفي رواية : (إنَّ الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : ألا هذه غدرة فلان) .

فأنت ترى أن القرآن والسنة قد حملا حملة عنيفة على الغدر والخيانة ، ولذلك جعلت الشريعة الغدر محرماً على المسلم حتى مع الكافر ما دام المسلم قد أعطى الكافر عهداً ، لأن المسلمين عند شروطهم وعهودهم . ولقد قال رسول اللهﷺ : (من قتل نفساً معاهدة بغير حقه لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً) . أخرجه البخاري . وإذا كان الله تعالى قد أمر في كتابه بالوفاء بعهود المشركين إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقصوا منها شيئا . فإن الوفاء بعهود المسلمين فيما بينهم أشد ونقضها أعظم إثماً .

والوفاء أنواع وألوان ، فهناك الوفاء بعهد الله تعالى ، بتأدية الواجبات وتجنب المنهيات ، وهناك الوفاء بالبيعة للإمام ، وهناك الوفاء لمن ارتبط معك بعقد مشروع ، وكل شخص له كرامة في نفسه ، وأصالة في خلقه لا يقبل أن يخون أو يخدع ، لأن الخيانة والغدر من صفات الأخساء ، ولذلك يقول أبو العتاهية :

ليس دينا إلا بدين ، وليس . . الدين إلا مكارم الأخلاق .
انما المكر والخديعة في النار . . . وهما من خصال أهل النفاق !!
وقد ورد عن النبيﷺ : (من غشنا فليس منا ، والمكر والخديعة في النار) .

ولقد وردت خصلة أخرى في بعض روايات الحديث وهي : إذا ائتمن خان) وخيانة الأمانة آيّاً كانت هذه الأمانة ـ رذيلة من أقبح الرذائل التي لا تتفق مع الإسلام ، ولا تتلاقى مع الإيمان ، ولذلك يقول القرآن الكريم : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ويقول :(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) ويقول عن المؤمنين (والذين هم لأماناتهم وعهدهم

راعون) . . . والحديث يقول : (أد الأمانة إلى من ائتمنك) فالخيانة في الأمانة من خصال النفاق . ولا أشد في الشريعة الإسلامية من خيانة الأمانة ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (القتل في سبيل الله يكفر كل ذنب إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له : اذهبوا به إلى الهاوية ، فيهوي به حتى ينتهي إلى قعرها ، فيجدها هناك كهيئتها فيحملها فيضعها على عنقه ، فيصعد بها في نار جهنم ، حتى إذا رأى أنه قد خرج منها زلت فهوى ، فيهوي هو في إثرها أبد الآبدين) رواه ابن مسعود مرفوعاً .

والأمانة تشمل كل ما ائتمن عليه الإنسان من مال أو عرض أو حق بل تشمل الشرائع التي جعلها الله في يدنا أمانات نعلمها للناس، ونقوم على حفظها بالعمل، فالأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الحديث ، وأشد من ذلك في الودائع ، ولذلك سمى الله تعالى مخالفة كتابه وسنة رسوله خيانة في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) .

وهذا وقد ذكر النووي أن جماعة من العلماء عدوا هذا الحديث مشكلاً من حيث أن هذ الخصال في المسلم المجمع على عدم الحكم بكفرة ، وقد أجيب عن ذلك بأن المتصف بهذه الخصال كالمنافق في التخلق بأخلاقه لا أنه منافق حقيقة . .

وهذا الجواب مبني على أن المراد بالنفاق في الحديث النفاق في الإيمان . وهذا الجواب مردود بقوله في الحديث الذي معنا : (كان منافقاً خالصاً) . وأجيب أيضا بأن الظاهر غير مراد وإنما الغرض من ذلك المبالغة في التحذير والتنفير من هذه الخصال بأبشع الطرق .

وارتضى القرطبي أن المراد بالنفاق هنا نفاق العمل ، ويرى آخرون أنه نفاق الإيمان ، والمراد بمن وجدت فيه هذه الخصال : من تعودها وصارت له دينا وخلقاً ، ويدل عليه التعبير بإذا فانها تدل على تكرار الفعل . فالمتخلق بها منافق حقيقة يستحق الدرك الأسفل من النار .

وبعد : فالحديث دعامة كبيرة من دعائم الأخلاق التي ترتكز عليها عزة الأمم وسعادتها .

نسأل الله جل جلاله أن يزين قلوبنا بالإيمان ونفوسنا بالتقوى ، وأن يعصمنا من الزلل والخلل ، إنه هو الرءوف الرحيم .

الحديث العاشر
قلب المؤمن دليله

روى الإمام أحمد عن وابصة بن مَعْبدٍ الاسدي رضي الله عنه قال : أتيْتُ رسول الله ﷺ وأنا لا أريد أن أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألته عنه ، فقال لي : ادْنُ يا وابصة . فدنوت حتى مسَّت رُكبتي ركبتيه ، فقال : ياوابصة أُخبركجئت بماتسأل عنه . قلت : يا رسول الله أخبرني قال : جئت تسأل عن البِرّ والاثْم . قلت : نعم . قال وابصة : فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري ويقول : « يا وابصة ، استَفْتِ قلبك البِرُّ ما اطمأنَّتْ إليه النَّفْسُ ، واطمأنَّ إليه القلبُ . والإثم ما حاك في النَّفْسِ وتردَّدَ في الصدْرِ ، وإنْ أفتاكَ الناسُ وأفْتوكَ) .

رواه الامام احمدوالدرامي باسناد حسن . ورواه البخاري في تاريخه عن وابصة بن معبد بقوله : (استفت قلبك ، وإن أفتاك المفتون) .

المعانـي والتصويـر

راوي هذا الحديث الشريف هو الصحابي الجليل أبو سالم وابصة بن معبد الأسدي ، أسلم سنة تسع ، وسكن الكوفة ثم تحول.وأقام بالرقة إلى أن توفي بهـا ، وروى عن النبي ﷺ أحاديث ، وكان كما يذكر النووي في تهذيب الاسماء كثير البكاء لا يملك دمعته .

ونحن نشهد في هذا الحديث اضواء النبوة ساطعة حيث نجد رسول اللـه ﷺ يدرك ما بنفس وابصة ، فيخبره عنه قبل ان يفيض به.فالرسول عليه الصلاة والسلام يريد في هذا الحديث أن يؤ دب أمته ويرقى بها في التـربية حتـى يجعـل من ضميرهـا حكماً ، ومن إحساسها الوجداني مرشداً ، ومن باطنها السليم قائداً وهادياً ، في غير حاجة الى حيل المفتين وآراء الدجالين المضللين . وهذا الحديث الجليل يعد ينبوعاً من ينابيع الحكمة ، وقبسة من الأنوار النبوية ، وهو دليل صدق على نبوة رسول الله ﷺ وسبقه لأحدث نظريات التربية وعلم النفس ، وإنه لجدير بالعلماء والفلاسفة والمربين ان يتأملوه ، وأن يدرسوا منهج رسول الله في التربية والتعليم والتهذيب دراسة علمية

متأنية حتى يدركوا المدى البعيد الذي سما به رسول الله بالنفس البشرية وطريقة تربيتها وتعليمها .

فإن القلب إذا ظل على أصل فطرته التي فطره الله عليها ، ولم تدنسه آفات الهوى وتلوي به شهوات الدنيا ، نظر بنور الله فميز الحلال من الحرام ، والخبيث من الطيب ، والبر من الإثم ، لأن الله غرس في كل نفس شعوراً فطرياً وإحساساً باطنياً بمعرفة التقوى من الفجور ، والقول الحق من القول الزور . قال تعالى : (فألهمها فجورها وتقواها) وقالﷺ : (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب) .

فالمؤمن الصادق يتبع أول خاطر يقذفه الله في قلبه فيترك ما التبس عليه وتردد في صدره ، ويفعل ما اطمأنَّ إليه قلبه وسكنت لفعله نفسه .

عن أنس رضي الله عنه : (ان النبيﷺ وجد تمرة في الطريق فقال : (لولا اني أخاف ان تكون من الصدقة لأكلتها) ، فإذا شك الإنسان في اباحة شيء فعليه الا يفعله تورعاً . .

فالانسان إما يندفع الى الحق بباطنه وإن كان مع استعانة بظاهره ، لأنه إذا طلعت شمس العناية على الباطن فأشرق بنور الله ، وامتلأ القلب باطمئنان الهداية الربانية ، تميل النفس عندئذ الى الحق ، وتنفر من الباطل ، وتدرك من الإثم ، قالﷺ : (الحلال بينّ والحرام بينّ ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات ، وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك ان يقع فيه) ، أي ان الأمر في الحلال الخالص يكون ظاهر الحل لا اشتباه فيه ، وكذلك الأمر في الحرام الخالص يكون ظاهر التحريم ، واضحاً معروفاً لا لبس فيه ولا غموض .

ألا ترى الشاة تضع لها حزمة البرسيم فتقف بجانبك تأكل وهي ساكنة مطمئنة ، حتى إذا حدثتها نفسها بخطف حزمة أخرى ليست لها أسرعت الى الهرب وأخذت تعدو في الفلاة .

وهذه الهرة تقف تتمسح بك ، فإذا ما منحتها قطعة من اللحم جلست تنهشها وتتمتع بها ، فإذا دفعها الشره الى خطف قطعة من أعلى المائدة أو طرفها فرّت بعيداً

وقفزت سريعاً ، فمن أعلم هذه الهرة أن ما صنعته حرام يعرضها للعقوبة ؟!! ومن أدرى تلك الشاة أن ما فعلته منكر يجب ان تهرب من عقابه ، وتفر من جزائه !! إنما هو الله جل جلاله ، خلق الإنسان والحيوان ، وأودع فيهما الشعور بالحلال والحرام ، وغرس في نفوسهما الوجدان الذي يمنعهما من الظلم والعدوان . قال تعالى : (وهديناه النجدين) والحيوان كالإنسان في إدراك ما له وما ليس له عن طريق الغريزة والإلهام .

إن الحلال والحرام كل منهما واضح بينٌ لا لبس فيه ولا غموض ، يدركه الانسان وسائر المخلوقات بإحساسها الفطري الذي أودعه الله إياه . وخرج الإمام احمد من رواية عبد الله بن العلاء بن زيد قال : سمعت مسلم بن مسلم قال : سمعت أبا ثعلبة الخشني يقول : (قلت يا رسول الله أخبرني ما يحلُّ لي وما يحرم عليَّ ، قال : البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولا يطمئن اليه القلب وإن أفتاك المفتون) .

وعن عبد الرحمن بن معاوية ان رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما يحلّ لي وما يحرم عليَّ ؟ وردد عليه ثلاث مرات ، كلٌّ ذلك يسكت النبي ﷺ ثم قال : أين السائل ؟ فقال له أنا يا رسول الله ، فقال بإصبعه : ما أنكر قلبك فدعه) . فالبر تسكن اليه النفوس الطاهرة ، وتطمئن اليه الصدور النقية ، والإثم يتردد في الصدر ولا تنشرح اليه النفس ، وإن أفتى المفتون وحكم المحكمون فالرسول ﷺ يريد من المؤمنين أن تكون لهم ضمائر حيّة نقية يحكمونها ، وقلوب صافية يتخذون منها مناراً يهتدون به في أفعالهم ، فلا يخطئون متى اخلصوا لله في العبادة والإتصال به . .

وتأمل هذا الاسلوب التربوي الذي يقوم على خبرة عظيمة بالنفس الانسانية والتحليل الدقيق، تأمل كيف غرس رسول الله المربي العظيم في قلب ذلك الصحابي الجليل بذرة التمييز بين الخير والشر ، والحلال والحرام ، بذلك الميزان الفطري الذي لا يخطىء بقوله : (يا وابصة استفت قلبك) فبدأ درسه الكريم بالتنبيه الى أهمية هذا الميزان ، وذلك باستعمال حرف النداء (يا) الذي يدل على كمال العناية بالمنادي والشفقة عليه ، كما ان في النداء تنبيه للمخاطب على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائه بشأنه وفرط اهتمامه بتلقيه ومراعاته . . فهذا النداء من الرسول الكريم الى ذلك الصحابي الجليل يحمل معنى التحبيب والدعوة الى إصغائه وشد انتباهه الى أمر ذي بال ، ولذا فقد غلب أن يلي النداء أمر أو نهي .

وقوله عليه الصلاة والسلام : (استفت) : أي اطلب الفتوى ، والفتوى هي الإجابة ، يقال : أفتاه في المسألة يفتيه ، إذا أجابه ، وتفاتوا : تحاكموا . والفُتيا والفتوى الجواب عما يُشْكِلُ من الأحكام . ويقال : استفيتُه فأفتاني بكذا) كما قال تعالى : (أفتُوني في أمري) .

وغلبت استعمال (الفتوى) في الإجابة عن مسائل الدين . . وقد فرق بعض العلماء بين السؤال والاستفتاء ، فقال : إن الاستفتاء يتطلب دقة النظر في إبداء الرأي ، والسؤال يستدعي ذلك ، وبناء على هذه التفرقة ورد قوله تعالى : (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن) وقوله (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) فقد استعمل كلمة (يستفتونك) في الموضعين للدلالة على شدة العناية بموضوعها وهو الأسرة والحق المالي .

وقوله (قلبك) قلب كل شيء لبه وخالصه ، يقال : هو عربي قلب ، أي خالص . .

ويروى في حق عليّ رضي الله عنه : (كان عليّ قرشياً قلباً) أي خالصاً من صميم قريش ، وقيل : إن المعنى انه كان فهما فطناً ، كقوله تعالى : (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

والقلب المراد هنا ليس هو ذلك الجزء الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، بل يراد به كما جاء في (إحياء علوم الدين) اللطيفة الربانية الروحانية التي لها بالقلب الحسي تعلق . وهو العالم بالله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي الى الله ، وهو المكاشف بما عند الله) كما يقول الإمام الغزالي رحمه الله .

وقد ذكر السيوطي هذا الحديث في (الجامع الصغير) بلفظ(استفت نفسك وإن أفتاك المفتون) فجاءت كلمة (نفسك) بدل كلمة (قلبك)ومعناهما هنا متقارب ، إذ فسر الغزالي النفس الصافية بأنها لطيفة ربانية ايضاً .

وقلب الانسان قيل سمي به لكثرة تقلبه ، ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك ، وقوله (بلغت القلوب الحناجر) أي الأرواح . وقال : (إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) أي علم وفهم . وقوله : (ولتطمئن به قلوبكم) أي تثبت به شجاعتكم ، ويزول خوفكم ، وعلى عكسه :

(وقذف في قلوبهم الرعب) وقوله (ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) ، قيل العقل والروح فأما العقل فلا يصح عليه ذلك ، قال ومجازه قوله : (تجري من تحتها الأنهار) ، والأنهار لا تجري وإنما تجري المياه التي فيها .

وأول ما ينبغي التنبيه إليه هو أن الظاهر أن الخطاب في هذا الحديث ليس عاماً ، وإنما هو موجه إلى وابصة لما أدركه الرسول عليه الصلاة والسلام من صفاء قلبه ومعرفته الحق ، ويقاس على وابصة كل من كان شبيهاً به في طهارة القلب وذكاء العقل .

ولكن يقول ابن حجر الهيثمي : (وفي جوابه ﷺ لوابصة بهذا اشارة الى متانة فهمه ، وقوة ذكائه ، وتنوير قلبه ، لأنه ﷺ أحاله على الإدراك القلبي ، وعلم انه يدرك ذلك من نفسه ، إذ لا يدرك ذلك إلا من هو كذلك ، وأما الغليظ الطبع ، الضعيف الإدراك فلا يجاب بذلك ، لأنه لا يتحصل منه على شيء ، وإنما يفصل له ما يحتاج اليه من الأوامر والنواهي الشرعية ، وهذا من جميل عاداته ﷺ ، كان يخاطبهم على قدر عقولهم ، ومن ثم قالت عائشة رضي الله عنها : أمرنا رسول الله أن ننزل الناس منازلهم) .

والرسول عليه الصلاة والسلام قد أرشدنا الى أن القلوب تصلح وتفسد فإذا كانت على فطرتها الصافية النقية أرشدت الى الخير ، وإذا كانت صدئة معيبة قادت الى الشر ، فقد قال : (الحلال بينّ والحرام بينّ) . وروى أحمد والطبراني ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال : (القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الفاجر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح ، فيه إيمان ونفاق ، فمثل الايمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد ، فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها) .

والقلب الأجرد هو الذي ليس فيه غل ولا غش ولا حسد ، فهو على أصل الفطرة ، فنور الايمان فيه يضيء والمنكوس المقلوب والقلب الأغلف هو الذي عليه غشاء عن سماع الحق وقبوله . والقلب المصفح هو الذي لصاحبه وجهان : يلقى أهل الايمان بوجه ، وأهل الكفر بوجه .

ومتى تطهر القلب وصفا صار رائداً لصاحبه يهديه بفطرته الى مواطن الخير وسبل

الرشاد ، ومن هنا جاء الحديث القائل : (إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه) . . ولقد قيل للرسول ﷺ : يا رسول الله ، من خير الناس ؟ فأجاب : كل مؤ من مخموم القلب . قيل : وما مخموم القلب ؟ قال : التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد) .

وفي رواية أنه سئل : (أي الناس أفضل ؟ فقال : الصادق اللسان المخموم القلب) وفي رواية ثالثة قال (ذو القلب المخموم واللسان الصادق) أي التقي الذي لا غل فيه ولا حسد . وهو من قولك : خممتُ البيت إذا كنسته ونظفته .

ويقول حجة الاسلام الغزالي في كتابة الإحياء مصوراً القلب الطاهر النقي أنه : (قلب عمر بالتقوى ، وزكا بالرياضة وطهر من خبائث الأخلاق ، تتقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ، ليعرف دقائق الخير فيه ، ويطلع على أسرار فوائده ، فينكشف له بنور البصيرة وجهه ، فيحكم بأنه لا بد من فعله ، فيستحثه عليه ، ويدعو إلى العمل به ، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيباً في جوهره ، طاهراً بتقواه ، مستنيراً بضياء العقل ، معموراً بأنوار المعرفة ، فيراه صالحاً لأن يكون له مستقراً ومهبطاً ، فعند ذلك يمده بجنود لا ترى ، ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجز إلى الخير ، وكذلك على الدوام ، ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير ، وتيسير الأمر عليه ، وإليه الاشارة بقوله تعالى : (فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى) وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية ، حتى لا يخفي فيه الشرك الخفي ، الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء ، فلا يخفى على هذا النور خافية ، ولا يروج عليه شيء من مكائد الشيطان . بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غروراً ، فلا يلتفت اليه .

وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معموراً بالمنجيات من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك ، وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه ، وهو القلب المطمئن ، المراد بقوله تعالى : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وبقوله عز وجل (يا أيتها النفس المطمئنة . .) .

فالانسان العاقل صاحب القلب الطهور يستطيع بيسر ان يتعرف الطريق المستقيم بين مختلف الشعاب والمسالك ، ولقد يقول الناس أقوالاً ولكنه لا يطمئن اليها

ولا يثق بها ، لأن قلبه يناديه من أعماقه قائلاً : ليس الحق هنا ، وإنما الحق هناك . ويتذكر عندئذ قول الرسول ﷺ : (والإثم ما حاك في صدرك وإن أفتاك الناس وأفتوك) أي وإن جعلوا لك فيه رخصة وجوازاً . بل قد يتأول له المتأولون ، ويخرج له المخرجون ، ويحتال عليه في الرأي محتالون ، ولكن نور قلبه يأبى ذلك ويجافيه ، ولا ينخدع به أو يجاريه ، لأنه يتحرز لدينه ، ويعلم ان ربه مطلع على الخفايا والسرائر (انه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) . كما يحسن التنبيه إلى أن الحديث لا يراد به فيما نفهم ـ والله أعلم بمراد رسوله ـ أن يترك الناس التفقه في الدين وتطلب حكم الله من مصادره ، ويكتفي بالاعتماد على خطرات القلب أو هو اتف النفس ، فإن هذه مزلقة أودت بالكثيرين فأوردتهم موارد الخسار والبوار ، ولذلك عاب ابن رجب الحنبلي على طائفة من الصوفية يزعمون ان الكشف الروحي عندهم يغنيهم عن الفقه وعلم الحلال والحرام . فيقول : (وكثير ممن يدعي العلم الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه : يذم العلم الظاهر الذي هو الشرائع والاحكام والحلال والحرام ، ويطعن في أهله ويقول : هم محجوبون وأصحاب قشور) .

وهذا يوجب القدح في الشريعة المطهرة والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والاعتناء بها ، وربما انحل بعضهم عن التكاليف ، وادعى أنها للعامة ، وأما من وصل فلا حاجة به إليها ، وأنها حجاب . وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين ـ وصلوا ولكن إلى سقر ، وهذا هو من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الاسلام .

ومنهم من يظن ان هذا العلم الباطن لا يتلقى من مشكاة النبوة ، ولا من الكتاب والسنة وإنما يتلقى من الخواطر والالهامات والكشوفات فأساءوا الظن بالشريعة الكاملة ، حيث ظنوا انها لم تأت بهذا العلم النافع الذي يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب ، وأوجب ذلك لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية ، والتكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر ، فضلوا وأضلوا) . .

فالرسول عليه الصلاة والسلام دعا في هذا الحديث الجليل إلى تنقية الضمير ، حتى يصبح هو القوة الآمرة الناهية التي تحذره من فعل الشر إذا أغرى به ، وتحاول أن تصده عن فعله ، فإذا هو أصر على عمله وأخذ يفعله أحس عدم الارتياح أثناء الفعل ، لعصيانه تلك القوة ، حتى إذا أتم العمل أخذت هذه القوة توبخه على الإتيان به ،

وأخذ يندم على ما فعل كذلك يحس ان هذه القوة تأمر بفعل الواجب ، فإذا بدأ في عمله شجعته على الاستمرار فيه ، فإذا انتهى منه شعر بإرتياح وسرور ، وبرفعة نفس واطمئنان قلب .

هذه القوة الآمرة الناهية هي قوة « الضمير » والوازع الديني ، أو العاطفة الخلقية ، او الشعور بالواجب ، أو السريرة .

فالضمير هو القاضي الذي يقاضي المرء على عمله ، كما أنه مصدر المكافآت والعقوبات ، ومنظم السلوك ومقوم الإعوجاج ، والضمير هو تلك القوة النفسية التي تبدو أول ما تبدو حينما نشعر بحرج في صدرونا بين الميول العليا والسفلى ، أعني بين الروح والمادة ، وبين الخير والشر ، وهذا الشعور هو منبع التدين ، لأن التدين إنما بني على محاسبة النفس ، إذ يفضي المرء ببصره إلى أعماق سريرته ، فيرى ما هنالك من قتال بين الروح والمادة ، فيصبح من أمر نفسه على بينة ، ثم تفضي به إلى معرفة خالقه ، وبذلك يميزالمرء بين الحق والباطل ، ويظل بالخيار بين الخبيث والطيب ، ومن ثم تقع عليه المسئولية والحساب (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين) (إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) .

على أن الضمير ليس مرشداً معصوماً من الخطأ ، بل هو تابع لما يؤخذ به الإنسان من سنن التربية الخلقية التي متى كملت أصبح الضمير حكماً مرشداً إلى مواطن الخير ، ويتنكب عنه لصاحبه عن مواطن الزلل ، وهو مرتبط تمام الارتباط بقوته وصحة أحكامه وسداد خطاه .

ولذلك وجب علينا أن نمرن على التمييز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، والخير والشر ، وألا نخضع للهوى والعاطفة :) يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلو) . .

وبعد هذا التوجيه النبوي الكريم من رسول الله الى وابصة: (يا وابصة استفت قلبك) أي اعرض على قلبك الأمور المشتبهات التي تخفي على كثير من الناس ولا يعلمها الا العالمون. بعد هذا التوجيه النبوي الكريم أرشده الى طريقة استفتاء القلب وأخذ الجواب السليم منه فقال : (البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والإثم

ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك) .

وفي رواية للإمام مسلم : (قال رجل : يا رسول الله ما الإثم ؟ قال : إذا حاك في صدرك شيء فدعه) .

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قلت للنبي ﷺ : افتني عن أمر لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : استفت نفسك ، قلت : كيف لي بذلك ؟ قال : تدع ما يريبك إلى ما لا يريبك وإن افتاك المفتون ، قلت : كيف بذلك ؟ قال : تضع يدك على قلبك فإن الفؤاد ليسكن للحلال ولا يسكن للحرام) .

ويروى عن عبد الرحمن بن معاوية : (أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما يحلّ لي وما يحرم عليّ ؟ وردد عليه ثلاث مرار ، كل ذلك يسكت النبي ﷺ ، ثم قال : أين السائل ؟ فقال أنا يا رسول الله ، فقال بإصبعه ، ما أنكر قلبك فدعه) .

وأما عن معنى البر : فهو التوسع في فعل الخير ، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة ، نحو (إنه هو البرُّ الرحيم) وإلى العبد تارة فيقال : بَرّ ربَّه أي توسع في طاعته . فمن الله تعالى الثواب ومن العبد الطاعة وذلك ضربان : ضرب في الاعتقاد وضرب في الأعمال . وقد اشتمل على قوله تعالى : (ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

وعلى هذا ما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن البر فتلا هذه الآية ، فإن الآية متضمنة للاعتقاد ، والأعمال والفرائض والنوافل . .

والبر : هو حسن المعاملة عموماً ، وغلب استعماله في الإحسان الى الوالدين وضده العقوق . فيقال : البر بالوالدين . وقد يراد به فعل الواجبات والطاعات . ويستعمل البر في الصدق لكونه بعض الخير المتوسع فيه ، فيقال : بَرَّ في قوله : وبَرَّ في يمينه . ويقال : بَرّ أباه فهو بارٌّ وبَرٌّ مثل صائف وصيف وطائف وطيف . وعلى ذلك قوله تعالى : (وبراً بوالديه) وقوله (وبراً بوالدتي) وبَرّ في يمينه فهو بارٌّ وأبْرَرْتُه

وبَرَّتْ يميني . وحجٌّ مبرور أي مقبول . وجمع البار أبرار وبررة قال تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم) وقال في صفة الملائكة (كرام بررة) فبررة خُصَّ بها الملائكة في القرآن الكريم من حيث أنه أبلغ من أبرار فانه جمع بَرٍّ ، وأبرار جمع بارٍّ ، وبَرٌّ أبلغ من بارٍّ كما أن عَدْلاً أبلغ من عادلٍ .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : البر شيء هين ، وجه طلق وكلام لين) . وإذا قرن البر بالتقوى كما في قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) فقد لا يكون المراد بالبر معاملة الخلق بالإحسان . وبالتقوى معاملة الحق بفعل طاعته واجتناب محرماته . وقد يكون أريد بالبر فعل الواجبات وبالتقوى اجتناب المحرمات .

وخلاصة القول : إن البر يدخل فيه جميع الطاعات الباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والطاعة الظاهرة كانفاق الأموال فيما يحبه الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر على الأقدار كالرصد والفقر ، وعلى الطاعات كالصبر على لقاء العدو .

وقد يكون جواب النبي في حديث النواس بن سمعان : البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس) قد يكون جوابه شاملاً لهذه الخصال كلها ، لأن حسن الخلق قد يراد به التخلق بأخلاق الشريعة . والتأدب بآداب الله التي أدب بها عباده في كتابه ، كما قال لرسوله ﷺ : (وإنك لعلى خلق عظيم) وقالت عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن : يعني أنه يتأدب بآدابه ، فيعمل بأوامره ويجتنب نواهيه فصار العمل بالقرآن له خلقاً كالجبلة والطبيعة لا يفارقه ، وهذا من أحسن الأخلاق وأشرفها وأجملها ، وقد قيل : إن الدين كله خلق .

أما حديث وابصة فقال : (البر ما أطمأن اليه القلب واطمأنت اليه النفس) .

وفي رواية : (ما انشرح إليه الصدر) . وفسر الحلال بنحو ذلك كما في حديث ثعلبة : (قلت يا رسول الله أخبرني ما يحل لي وما يحرم عليّ ، قال : البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب . .) الخ .

وهذا يدل على أن الله تعالى فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله ، وركز في الطبائع محبة ذلك والنفور من ضده ، وقد يدخل هذا في قوله من حديث عياض بن حماد : (إني خلقت عبادي حنفاء مسلمين ، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن

دينهم فحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا) وقوله (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) قال أبو هريرة اقرأوا ان شئتم : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) .

وأخبر أن قلوب المؤمنين تطمئن بذكره ، فالقلب الذي دخله نور الإيمان وانشرح به وانفسح سكن للحق واطمأن به ويعرف الحق بالنور الذي عليه ويقبله وينفر عن الباطل ويكرهه ولا يقبله . .

فحديث وابصة الذي نحن بصدده يدل على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه مما سكن إليه القلب وانشرح اليه الصدر فهو البر والحلال ، وما كان خلاف ذلك فهو الإثم والحرام . . ومعنى اطمئنان النفس والقلب هو سكونهما واستقرارهما ، وعدم القلق فيهما ، أو الشك منهما في الأمر .

وقوله ﷺ في حديث النواس بن سمعان : الإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس إشارة الي أن الإمان ما أثر في الصدر حرجاً وضيقاً وقلقاً واضطراباً فلم ينشرح له الصدر ، ومع هذا فهو عند الناس مستنكر بحيث ينكرونه عند إطلاعهم عليه ، وهذا أعلى مراتب الإثم عند الاشتباه ، وهو ما استنكر الناس فاعله وغير فاعله . ومن هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه : ما رآه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن ، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح .

وكلمة (الإثم) والآثام : اسم للأفعال المبطئة عند الثواب ، وجمعه آثام . . وقد أثم إثما وآثاماً فهو آثم ، وأثيمٌ ، وتأثَّمَ خرج من اثْمِهِ كقولهم تحَوَّب خرج من حَوْبه وحَرَجه أي ضيقه . وقوبل الإثم بالبر فقال ﷺ : (البر ما اطمأنت اليه النفس والإثم ما حاك في صدرك) وهذا القول منه حكم في البر والإثم لا تفسيرهما .

فالإثم هنا للأفعال المبطئة عن الثواب ، وهو مقابل البر .

وقول الحديث : (الإثم ما حاك في النفس) أي ما أثر فيها وأوجد بها ضيقاً وقلقاً ونفوراً ، كأنه يحز فيها ، ويفسر هذا قول ابن مسعود : (إياكم وحزائز القلوب ، وما حز في القلب فدعه) . وفي الحديث : (الإثم حزاز القلوب) اي أن العمل القبيح يحز في القلوب ، أي يؤثر فيها كما يؤثر الحز في الشيء ، والإثم هنا هو ما يخطر في القلوب أنه معصية لفقد الطمأنينة إليه .

وروى عن ابن مسعود أنه قيل له : أرايت شيئاً يحيك في صدرونا لا ندري حلال هو أم حرام ؟ فقال إياكم والحكاكات فإنهن الإثم ،والحك والحز متقاربان في المعنى . والمراد ما أثر في القلب ضيقاً وحرجاً ونفوراً وكراهة . . وهذه الأحاديث مشتملة على تفسير والبر والإثم . وبعضها في تفسير الحلال والحرام . فحديث النواس بن سمعان فسر النبي ﷺ : البر بحسن الخلق ، وفسره في حديث وابصة وغيره بما اطمأنت إليه النفس والقلب ، كما فسر الحلال والحرام بذلك في حديث أبي ثعلبة . . وإنما اختلف في تفسير البر لأن يطلق باعتبار معنيين باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم ، وربما خص به الإحسان إلى الوالدين ، فيقال بر الوالدين ، ويطلق كثيراً على الإحسان الى الخلق عموماً . وقد صنف ابن المبارك كتاباً سماه (كتاب البر والصلة) وكذلك في صحيح البخاري ، وجامع الترمذي (كتاب البر والصلة) ويتضمن هذا الكتاب الإحسان إلى الخلق عموماً ، ويقدم فيه بر الوالدين على غيرهما .

وقوله (الإثم ما حاك في النفس) كلمة (حاك) كلمة دقيقة مختارة تصور معناها أبدع تصوير ، فيقال : حك الشيء في نفسك إذا لم تكن منشرح الصدر به ، وكان في قلبك منه شيء من الشك والريب ، وأوهمك أنه ذنب وخطيئة .

وقد روى أبن الأثير في النهاية : أنه جاء في الحديث : إياكم الحكاكات فإنها المآثم) والحكاكات جمع حكاكة ، وهي المؤثرة في القلب .

وقال رجل : يا رسول الله ما الإثم ؟ قال : إذا حاك في صدرك شيء فدعه .

وقول الحديث : (الإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر) مقابلة لطيفة لمعنى البر الذي فسره : (ما أطمأنت إليه النفس . واطمأن إليه القلب) .

فالبر يقابل الإثم ومعناه ما حاك في القلب وتردد في الصدر . . فأنت ترى هذا التأثير الإيقاعي بين الجمل الواردة في الحديث ، حيث تربط بينها نغمة صوتية متشابهة ناشئة عن التقارب في الوزن بين كثير من الالفاظ فكلمة (البر) مساوية لكلمة (الإثم) وجملة (ما اطمأنت اليه النفس) مساوية إلى جملة (ما حاك في القلب) وجملة (وأطمأن اليه القلب) مساوية إلى جملة (وتردد في الصدر) .

فهذه المقابلة البلاغية اللطيفة بين هاتين الجملتين بتناسقها اللفظي البديع جعلت المعنى واضحاً مستقيماً يجري على مداه الفسيح .

ولا تقف عظمة الأسلوب النبوي الكريم عند حد هذه المقابلة اللفظية والحلية الأُسلوبية ، ولا عند هذا الايجاز العجيب . والتناسق الدقيق بين الألفاظ والمعاني . بل عمد إلى تصوير الخطرات النفسية والأمور المعنوية : صورة حسية مرئية تتملاها العين ويتأملها الخيال فيلصق المعنى في ذهنك بصورته الحسية كأنك تراه بعينيك ويطبعه في قلبك وينفذ بها إلى عقلك وخيالك . فأنت تكاد ترى بعينيك ما يكاد يعتمل في نفس شخص خطر له أمر من الأمور المشتبهة ولا يدري أحلال هو أم حرام ؟ وتحس تلك الحكحكة التي تحز في قلبك ، وتروح جيئة وذهاباً في القلب ثم تردد يمنه ويسره هنا وهنا في النفس أتفعل أم لا تفعل ذلك الشيء . فلا أروع ولا أبدع من تلك الخبرة البديعة بمكنونات النفوس وخبايا الضمائر .

ولا يبعد منا أن نجد التأثر بالأسلوب القرآني في هذا الحديث في تفسير البر والإثم كما ألمحنا الى ذلك في قوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم) .

وبعد : فلا زال في هذا الحديث النبوي المعجز العظيم الكثير من الأسرار البلاغية والبيانية السامية . فقد بدأ الحديث بأمر وجهه الرسول ﷺ الى السائل بأن يستفتى قلبه (استفت قلبك) وختم بتقرير حقيقة ضخمة وهي أن عرض الأمر المشتبه على القلب السليم ، سيعطى الجواب السليم لا محالة ، وتلك هي الفتوى الصحيحة التي لا عوج فيها ، وإن أفتى المفتون بغير ذلك ، فجاء عجز الحديث يصرح بهذا المعنى بقوله (وإن أفتاك الناس وأفتوك) . وبين البدء والختام الإجابة الشافية لسؤ ال السائل الحصيف ، فكان البدء قوياً مثيراً جامعاً شاملاً على وجازة لفظة ، وجاء الختام لا يقل عن البدء قوة ، ولكن قوته في ذلك التأكيد المطمئن ، بعد الارشاد الى الطريق المستقيم .

فقوله في ختام الحديث : (وإن أفتاك الناس وأفتوك) أي وإن جعلوا لك فيه رخصة وجوازاً .

ويقول الامام الغزالي : (وما وقع الشك فيه استفتى فيه القلب) ثم يقول : (فالمفتي يفتى بالظن ، وعلى المستفتى أن يستفتى قلبه ، فإن حاك في صدره شيء فهو الإثم بينه وبين الله ، فلا ينجيه في الآخرة فتوى المفتى ، فإنه يفتى بالظاهر والله يتولى السرائر) . ونستفيد من الحديث الشريف أن قلب الانسان المجرد من الأهواء والأغراض مفطور على معرفة الحق وتقبله والاطمئنان إليه ، وهو ينفر من الباطل

ويضيق به ، ولعل هذا هو السر في أن الإسلام يسمى الشيء الطيب الذي يحبه ويدعو إليه (معروفا) ويسمى الشيء الخبيث الذي ينتهى عنه (منكراً) ولكن ينبغي أن نتذكر دائماً أن ما ورد فيه النص الصريح من الكتاب والسنة وأعمال الخلفاء الراشدين المهديين ليس مجالاً للرجوع إلى القلب ، فإذا كان هناك دليل شرعي على حكم من الأحكام ، فالواجب الرجوع إليه ، وإن لم ينشرح له الصدر ، لأن أمر الله تعالى ورسوله ﷺ أولى بالتقديم من ميل القلب أو هوى النفس ، والقرآن الكريم يقول : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) ويقول أيضا (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً فما قضيت ويسلموا تسليما)

ومن هنا فإن الدين الاسلامي الذي جعله الله منهاجاً للحياة وشرعة لعبادة قد نص على أمور ممنوعة محرمة ، وعلى أمور مباحة جائزة ، وعلى أمور مطلوبة لازمة ، وعلى أمور فيها تيسير وتسهيل ، وعلى أمور فيها عزم وتصميم . وقد سئل رسول الله ﷺ عن أشياء من المطعومات أحلال أم حرام ؟ فقال رسول الله (الحلال ما أحله الله في كتابه ، والحرام ما حرّمه الله في كتابه) رواه الترمذي .

وبعد : فماذا يمكن القول في هذاالبيان النبوي الرائع الذي يستخرج منه النظر أنماطاً عجيبة من الإبداع الفني والمعنوي ؟!

أسأل الله أن يوفقنا الى البر والخير ، وأن يباعد بيننا وبين الإثم والمنكر إنه أفضل مأمول وأكرم مسئول .

الفهرست

صدر للمؤلف :

١ ـ آيات الجهاد في القرآن الكريم — دراسة موضوعية وتاريخية وبيانية ـ دار البيان الكويت

٢ ـ منهج سورة النور في إصلاح النفس والمجتمع — دار الشروق ـ جدة الطبعة الثالثة .

٣ ـ وصف الخيل في الشعر الجاهلي — دار الكتب الثقافية ـ الكويت

٤ ـ من روائع الأدب النبوي — دار الشروق ـ جدة ـ الطبعة الثانية

٥ ـ العلاقات الدولية في الإسلام على ضوء الانجاز البياني لسورة التوبة دار الشروق ـ جدة ـ الطبعة الثانية

٦ ـ نظرات في سورة الحجرات — دار الشروق ـ جدة

٧ ـ دراسة أدبية لأحاديث نبوية مختارة — دار الشروق ـ جدة

٨ ـ نفحات من السنة — دار الشروق ـ جدة

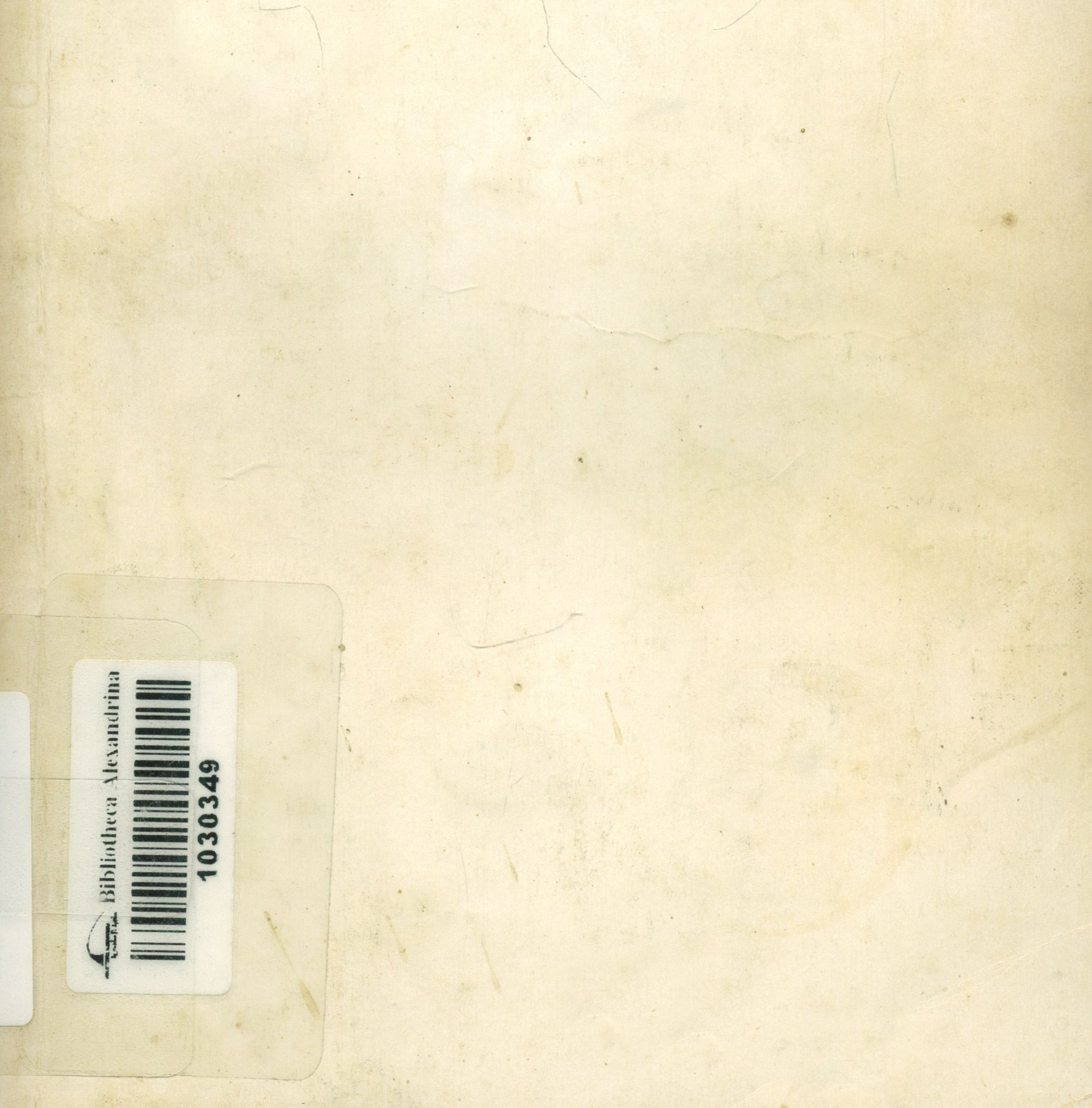
٩ ـ التفسير الأدبي لسورة لقمان — دار الشروق ـ جدة

١٠ ـ التفسير الأدبي لسورة الرعد — دار الشروق ـ جدة

١١ ـ من البلاغة النبوية — دار الشروق ـ جدة

١٢ ـ المطالعة والنصوص الأدبية — (لوزارة التربية بدولة الكويت (بالاشتراك)

١٣ ـ التربية الإسلامية — (لوزارة التربية بدولة الكويت (بالاشتراك)


Bibliotheca Alexandrina
1030349